أعلام اليمن المجتهدون

الإمام محمد بن إبراهيم الوزير

وكتابه العواصم والقواصم



تأليف

القاضي إسماعيل بن علي الأكوع

دار ابن حزم



﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

[آل عمران: ٥٣]

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

أعلام اليمن المجتهدون

الإمام محمد بن إبراهيم الوزير

وكتابه العواصم والقواصم

تأليف
القاضي إسماعيل بن علي الأكوع

دار ابن حزم

كلمة شكر

يعود الفضل في إعادة طبع كتاب **(الإمام محمد بن إبراهيم الوزير)** بهذا المستوى الرفيع من الدقة والاتقان وحسن الإخراج إلى الابن الكريم العالم الأستاذ إبراهيم باجس عبد المجيد، الذي استحثني على إعادة طبعه فتحمل عني مشقة مراجعة النص عند صفه للطبع وبعده؛ فله الشكر الدائم مني والأجر الجزيل من الله تعالى. والله ولي الهداية والتوفيق.

المؤلف

مقدمة

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سُلطانه، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد الأمين، وآلِهِ وصحابتِهِ الراشدين، والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمّا بعد، فهذا بحثٌ كتبته عن إمام أئمة الاجتهاد، العَلَم المفرد محمد بن إبراهيم الوزير ـ رحمه الله ـ ليكون مقدمةً لكتابه الشهير «العواصم والقواصم في الذَّبِّ عن سنة أبي القاسم» الذي تقومُ دار البشير في عمّان ـ مشكورةً ـ بإصداره تباعاً[1] بتحقيق الأستاذ العَلاّمة شُعَيْب الأَرنؤوط أعيدُ نشره ـ اليوم ـ مستقلاً، بعد أن أضفتُ إليه زوائد كثيرةً، وفوائد جمَّةً استحسنتُ إتحافَ القارىء بها، ليزداد علماً ومعرفةً بهذا الإمام الجليل الذي لم تجُدْ بمثله الأيام، وقد لا تجود في مستقبل الدهور على حدّ قول الشّاعر:

هيهات أن يأتي الزمانُ بمثله   إنَّ الزَّمانَ بمثلِه لبَخيل

وقد شجعني على المبادرة بسرعة إعادة نشر هذا البحث مستقلاً سببان، أولهما: إصرار بعض من قرأ مقدمتي المذكورة من علماء الزيدية على أن الإمام ابن الوزير ـ رغم اجتهاده ـ كان لا يزال متمسكاً بزيديته حتى فارق الحياة، مع أنني ذكرتُ أن أسبابَ الخصومة الشديد بين الإمام ابن الوزير، وبين بعض علماء عصره المقلّدين ومن تبعهم ممن هم على شاكلتهم، تعود إلى نبذه التقليد واجتهاده وتمسكه

(١) نشر في تسع مجلدات من دون فهارسه.

بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحثّه للمتمذهبين المقلدين ـ أيّاً كان مذهبهم ـ إلى الرجوع إلى العمل بالكتاب والسنة وحدهما، كما ذكرتُ أن الإمام ابن الوزير لو بقي متمسكاً ببعض عقائد الزيدية وشعائرها، لما حُورِبَ من قبل أعداءِ السنة بتلك الحروب الكلامية الضارية المتصلة به حتى اليوم[1]، وذكرت أيضاً أن الخلاف بينه وبينَ هؤلاء أعمقُ بكثير من أن يكون قاصراً على المسائل الاجتهادية.

وإذا كان المذهب الزيدي هو المذهب الوحيد الذي أفسح المجال للاجتهاد لمن ملك وسائِلَه من أتباعه أخذاً بالقاعدة الفقهية المعروفة «كل مجتهد مصيب» التي نادى بها المهدي أبو عبد الله الداعي[2]، فظهر فيهم علماء مبرزون كصاحبنا الإمام ابن الوزير، الذي يعدّ المؤسس الأول لمدرسة الاجتهاد، والعلاّمة المجتهد الإمام البدر محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني ثم الصنعاني، والإمام العلاّمة المجتهد عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر شرف الدين الكوكباني، وشيخ الإسلام الإمام محمد بن علي الشوكاني وغيرهم، فإن هؤلاء العلماء قد حوربوا حرباً لا هَوَادَة فيها من قبل بعض علماء المذهب الزيدي المقلِّدين حتى اضطر الإمام المقْبلي إلى بيع بيته وأملاكه، ورحل بأهله مهاجراً بعقيدته السلفية إلى مكة المكرمة، فسكن فيها حتى توفي بها، كما اعتقل الإمام محمد بن إسماعيل الأمير، واضطر ـ فيما

---

(١) سمعت أن بعض آل الوزير المعاصِرين قال لرجلٍ سمعه يثني على الإمام محمد بن إبراهيم الوزير: إنه ممن أضلّه الله على علم.

(٢) هو الإمام المهدي محمد بن الحسن، بويع له بالإمامة بهَوْسَم، ثم كاتبه أهل الدَّيلم فوصل إليهم سنة ٣٥٣، ثم قصد هَوسَم، فاستولى عليها بعد محاصرة طويلة، وأُسر مراراً. وهو الذي أظهر في الديلم أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيب، لأن القاسمية (نسبة إلى الإمام القاسم الرَّسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن الحسن) كانوا يُخطِّئون الناصريةَ (نسبة إلى الناصر الأطروش الحسن بن علي لطرشٍ كان في أذنيه)، وكذلك العكس، فرجعوا إلى قوله بعد مناظراتٍ كثيرة. توفي بهوسم مسموماً سنة ٣٦٠هـ، وقيل سنة ٣٥٩هـ.

بعد ـ إلى المهاجرة إلى شُهارة لأسباب سياسية، حيث وجد فيها الأمن على نفسه، ووجد فيها التربة الصالحة لتدريسه علوم السنة، وتعرض الإمام الشوكاني لمؤامرات كثيرة استهدفت قتله ـ كما حكى ذلك في كتابه (أدب الطلب) ـ وجرى للآخرين محنٌ شديدة، وخطوبٌ رهيبةٌ.

وإذا كان هذا هو حال المذهب الزيدي الذي يسمح بالاجتهاد لمن هو أهلٌ له، فبم يُفسر هذا التناقضُ بين الدعوة إلى الاجتهاد وبين رفضها من أتباعه وإعلان الحرب على من يترك التقليد ويعمل بالكتاب والسنة؟ مع أن المكابرين يعلمون علم اليقين أن خصوم أهلِ السنة لم ينقموا منهم إلاَّ لأنهم تركوا المذهب، ولم يلتفتوا في قبيل ولا دبير إلى قول أحد من رجال المذاهب مما ليس عليه أثارة من علم.

والسَّبب الأخير أنه حينما قامت ثورة اليمن سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)، واختار قادتها النظام الجمهوري بديلاً للنظام الملكي، اتصلت اليمنُ بالأقطار الأخرى اتصالاً وثيقاً بعد أن كانت أبوابها ونوافذها في عهد الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، وفي عهد ابنه الإمام أحمد موصدة، فأخذ الشباب يَعُبُّون من التيارات الحزبية المختلفة المنتشرة في العالم العربي، فمال بعض من الطلاب إلى اعتناق مبادىء تلكَ الأحزاب، ومنهم من مال إلى قراءة كتب السنة فعمل بها، فراراً من الجمود المذهبي الذي يعتقد أتباع كل مذهب أن أصحاب المذاهب الأخرى ليسوا على شيء، فما كان من علماء بعض المذاهب إلاّ أن ثارت ثائرتهم لميل من مال من الشباب إلى قراءة السنة والعمل بها، بينما لم يحركوا ساكناً إزاء من انحرف عن العقيدة الإسلامية وجاهر بكفره وإلحاده، كما أن من هؤلاء العلماء من يقوم بالترويج لمذهب الإمامية (الاثني عشرية) بنشر كتبهم بدعوى مقاومة (الوهابية) وغيرها، كما يقومون بنشر كتيبات تتضمن أحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ القائل: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، وينسبونها كذباً إلى مشاهير الصحابة لِيُلبِّسُوا على عامة الناس حتى يصدقوها.

وتِـلْـكَ شـكـاةٌ ظـاهِـرٌ عـنـك عـارُهـا

وهذا هو حجّة أعداء أهل السنة اليوم، ومن قبل كانوا يرمونهم بأنهم نواصب يكرهون أهل البيت حتى يُثيروا في وجوههم نقمة عامة النَّاسِ وسخطهم لتركهم التشيع، وما هذا التشيع في حقيقة أمره إلا ما بينه شيخ الإسلام الشوكاني بقوله:

تـشـيـعُ الأقـوام فـي عـصـرنـا مـنـحـصـرٌ فـي أربـع تُـبْـتَـدَع
عـداوةُ الـسـنـة، والـسـبُّ لـلأ سلاف، والجَمْعُ، وتَركُ الجُمَع

مع أن هذا التشيع ـ كما هو معروف ـ بعيد كل البعد عن محبة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان أولى بهؤلاء العلماء المقلّدين الجامدين أن يُسرُّوا باتجاه من اتجه من الناس إلى العمل بالكتاب والسنة لأن هذا هو السبيل الوحيد الذي يجمع المسلمين كلهم على اختلاف مذاهبهم ونحلهم وعقائدهم على كلمة سواء، كما كان أسلافهم في الصدر الأول، ومنهم أوائل أئمة الزيدية الذين كانوا يأخذون بالسنة التي رواها مُحَدِّثون من غير طرق أهل البيت، ولم يؤثر عنهم تعصب ولا تحيز لفئة. بينما التمسك بالمذاهب التي يقوم أكثرها على محض الرأي يزيد في تعميق وتوسيع الفرقة بين المسلمين، مما يصدق عليهم قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

لذلك فإن الرجوع إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو المنقذ الوحيد لانتشال المسلمين من محنة الصراع والخلاف والشقاق القائم بينهم منذ زمن طويل، وهم يتخبطون فيها حتى ضعفوا واستكانوا، ثم نفذ إليهم أعداؤهم، فوسعوا شقة الخلاف، ودفعوا بعضهم لمحاربة بعض بعد أن أغروا بينهم العداوة والبغضاء.

هذا وقد توسعت في هذا البحث بقدر الإمكان؛ لإيضاح جوانب

الخلاف بين الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ومن نهج نهجه من علماء اليمن المجتهدين وبين معارضي هذا المنهج في عصره وبعد عصره حتى اليوم من وجهة نظر علماء السنة.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

صنعاء في العاشر من شوال سنة ١٤٠٧هـ.

الموافق ٨/ ٦/ ١٩٨٧

إسماعيل بن علي الأكوع



إن الحمدُ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا. من يَهْدِه الله، فلا مضلّ له، ومن يُضْلِل فلا هادِيَ له، ونصلي ونسلِّم على رسول الله الهادي إلى أقوم طريق، وأوضح سبيل، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد، فإني لا أجد ـ وأنا أتحدَّثُ عن الإمام الجليل محمد بن إبراهيم الوزير، رحمه الله ـ عبارة تَصِفُ علماء السنة المجتهدين في اليمن، وهو في مقدمتهم أدقَّ وأشمل من كلمة شيخ الإسلام الشوكاني رحمه الله وهو يترجم للإمام نفسه في كتابه «البدر الطالع»، مشيراً إلى جهل علماء المسلمين خارج اليمن بمكانة علماء السنة في اليمن، وعُلُوِّ منازلهم، وطولِ باعهم، ورسوخِ أقدامهم في ميادين الاجتهاد، وهي قوله:

«ولا ريبَ أن علماء الطوائف لا يُكْثِرُون العناية بأهل هذه الديار (اليمن) لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرد التقليد لمن لم يَطَّلع على الأحوال، فإن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يُجاوِزُ الوصف، يتقيَّدُونَ بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمِدُون على ما صحَّ في الأمهات الحديثية، وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام، ولا يرفعون إلى التقليد رأساً، لا يشوبون دينَهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهلُ مذهب من المذاهب من شيء منها. بل هُم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدلّ عليه كتابُ الله، وما صحَّ من سنة رسول الله، مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحوِ وصرفٍ وبيانٍ

وأصولٍ ولغةٍ، وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية. ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيدُ بنصوص الكتاب والسنة، وطرحُ التقليد، فإن هذه خصيصة خصَّ الله بها أهلَ هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة، ولا تُوجد في غيرهم إلا نادراً»[1].

أما سببُ تفرد اليمن بظهور علماء مجتهدين، ملتزمين بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلّى الله عليه وآله وسلم، غير ميَّالينَ إلى أيِّ مذهب من المذاهب الإسلامية المعروفة، فيرجعُ إلى أن المذهب الزيدي في أصل دعوته يسمح بالاجتهاد، فلم يحْجُرْ على أتباعه حريةَ التفكير، ولا قيَّدهم بالتزام نصوصه، ولكنه أطلق لهم العِنَانَ، وترك لهم الخِيار، بعد أن جعل بابَ الاجتهاد مفتوحاً لمن حَذَقَ علومه واستوفى شروطه؛ فكان هذا حافزاً لمن وهبه الله ذكاءً وفِطنة، ورزقه فهماً وبصيرة أن يعملَ بما أوصله إليه اجتهادهُ من أدلة الكتاب والسنة، فكان الإمام محمد بن إبراهيم الوزير أبرزَ مَنْ بلغ أقصى درجاتِ الاجتهاد المطلق، وقد تلاه آخرون، كالحسن بن أحمد الجلال (١٠١٤ ـ ١٠٨٤)، وصالح بن مهدي المَقبلي (١٠٣٨ ـ ١١٠٨)، ومحمد ابن إسماعيل الأمير (١٠٩٩ ـ ١١٨٢)، وعبد القادر بن أحمد ابن عبد القادر شرف الدين (١١٣٥ ـ ١٢٠٧) ومحمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ ـ ١٢٥٠)، رحمهم الله جميعاً، على تفاوتٍ فيما بينهم في مراتب الاجتهاد ودرجات العلم والفهم وقول الحق.

ولم أخصّ هؤلاء بالذكر إلاَّ لأنهم نَعَوْا على العلماء المقلدين جمودَهم، وحثّوا المسلمين على العمل بالكتاب والسنة، فهذا شيخ الإسلام الشوكاني يستطرِدُ في ترجمته للإمام ابن الوزير استنكاره على العلماء المقلدين، فيقول: «وإني لأكثر التعجب من جماعة من أكابر العلماء المتأخرين الموجودين في القرن الرابع وما بَعده، كيف يقفونَ

---

(١) البدر الطالع ٢/ ٨٣.

على تقليد عالِم من العلماء، ويُقدِّمونه على كتاب الله وسنة رسوله، مع كونهم قد عرفوا مِن علم اللسان ما يكفي في فهم الكتاب والسنة بعضُه؟ فإن الرجل إذا عَرَفَ مِن لغة العرب ما يكون به فاهماً لما يسمعُه منها، صار كأحد الصحابة الذين كانوا في زمنه صلّى الله عليه وآله وسلم، ومن صار كذلك، وجب عليه التمسكُ بما جاء به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلم، وترك التعويل على محض الآراء. فكيف بمَنْ وقف على دقائِق اللغة وجلائلها إفراداً وتركيباً وإعراباً وبناءً؟ وصار في الدَّقائق النحوية والصرفية والأسرار البيانية، والحقائق الأصولية بمقام لا يخفى عليه من لِسان العرب خافية، ولا يَشِذُّ عنه منها شاذَّة ولا فاذة، وصار عارفاً بما صحَّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله سلم في تفسير كتاب الله، وما صحَّ عن علماء الصحابة والتابعين، ومَنْ بعدهم إلى زمنه، وأتعب نفسه في سماع دواوين السنة التي صنفتها أئمة هذا الشأن في قديم الأزمان وفيما بعد فمن كان بهذه المثابة، فكيف يسوغ له أن يعدِلَ عن آية صريحةٍ، أو حديثٍ صحيحٍ إلى رأي رآه أحدُ المجتهدين؟ حتى كأنه أحدُ الأغتام الذين لا يعرفون من رسوم الشريعة رسماً. فيالله العجب، إذا كانت نهايةُ العالِم كبدايته، وآخرُ أمره كأوله، فقل لي: أيُّ فائدةٍ لتضييع الأوقات في المعارف العلمية؟ فإن قولَ إمامه الذي يُقلِّده هو ما كان يفهمه قبل أن يشتغلَ بشيء من العلوم سواه، كما نُشاهده في المقتصرين على علم الفقه، فإنهم يفهمونه، بل يصيرون فيه من التحقيق إلى غاية لا يخفى عليه منه شيء، ويدرسون فيه، ويُفتون به وهم لا يعرفون سواه، بل لا يميِّزون بينَ الفاعل والمفعول[1]».

ثم خَلَصَ شيخ الإسلام إلى هذه النصيحة: «والَّذي أدينُ الله به أنه لا رُخصةَ لمن عَلِمَ من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن

---

(١) البدر الطالع ٢/ ٨٤.

يُقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف، وشطرٍ من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، ثم إذا انضم إلى ذلك الاطلاعُ على كتب السنة المطهّرة التي جمعها الأئمة المعتبرون، وعَمِلَ بها المتقدمون والمتأخرون، كالصحيحين وما يلتحِقُ بهما مما التزم فيه مصنّفوه الصحة، أو جمعوا فيه بينَ الصحيح وغيره مع البيانِ لما هو صحيح، ولما هو حسن، ولما هو ضعيف، وجب العملُ بما كان كذلك من السنة، ولا يحِلُّ التمسكُ بما يُخالفه من الرأي، سواء كان قائله واحداً أو جماعة أو الجمهور، فلم يأت في هذه الشريعة الغراء ما يدل على وجوب التمسك بالآراء المتجرّدة عن معارضة الكتاب والسنة، فكيف بما كان منها كذلك، بل الذي جاءنا في كتاب الله على لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾. إلى آخر ما أورده في الحثّ على العمل بكتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وآله وسلم وحدهما[1]».

مولد الإمام الوزير:

وُلِدَ على المشهور الصحيح في رجب سنة ٧٧٥هـ بهجرة الظَّهْرَاوَيْن من شَظَب[2]، بيد أن المؤرخ عبد الوهَّاب بن عبد الرحمٰن البرُيهي ذكر في تاريخه ـ وهو يترجم له ـ ما لفظه: «قلت: قرأتُ تاريخ مولده منقولاً من خطه، قال: مولدي في رجب الفرد سنة ست وسبعين وسبع مائة.

وبمثل هذا روى الإمام شرف الدين في شرح مقدمة كتابه

---

(١) البدر الطالع ٢/ ٨٥.

(٢) شَظَب: جبل من بلد بني حجَّاج من ناحية السَّودَة شمال غرب صنعاء على مسافة (١٠٠) كيلومتر تقديراً، وقد خربت هجرة الظَّهراوين، ولم يبق منها إلاّ بيتان، وانظر في ذلك كتابنا «هجر العلم ومعاقله في اليمن» ٣/ ١٣٣٩.

«الأثمار في فقه الأئمة الأطهار» حينما تعرض لذكر محمد بن إبراهيم الوزير استطراداً، فقال: «ورأيتُ لابن أخيه وأنا أدركتُ آخر مدته في أول وقت طلبي، رأيت له ترجمة لهذا بخطِّه، قال فيها: وُلِدَ رحمه الله في شهر رجب الفرد ـ كما وجدته بخطه ـ في سنةَ ست وسبعين وسبع مائة بهجرة الظَّهْرَاوين بشَظَب، وهو جبل عالٍ باليمن».

قلت: وإذا كانت هذه الترجمة التي اعتمد عليها الإمام شرفُ الدين هي التي بين أيدينا اليوم، فهي ليست لابن أخيه، وإنما هي لابن ابن أخيه محمد بن عبد الله بن الهادي بن إبراهيم الوزير، وقد ورد فيها ما لفظه: «مولده ـ رضي الله عنه ورحمه ـ في شهر رجب الأصب من سنة خمس وسبعين وسبع مئة بهجرة الظَّهْرَاوَيْن من شَظَبَ، وهو جبل عالٍ باليمن، هكذا نقلتُه من خطّه رضي الله عنه، وحفظتُه من غيره من الأهل».

أمّا ما ذكره السخاوي في «الضوء اللامع» بأنه وُلِدَ تقريباً سنة ٧٦٥، فلا صحة لذلك، وقد فَنَّد هذا الوهم شيخ الإسلام الشوكاني في «البدر الطالع» في ترجمته، حيث قال: «وهذا التقريب بعيد والصواب الأول» (أي سنة ٧٧٥).

نشأته ودراسته وشيوخه:

نشأ في هجرة الظهراوين بينَ أهله الذين آثروا طلب العلم على ما سواه، وانقطعوا له، واشتغلوا به درساً وتدريساً وتأليفاً، فأخذ يسيرُ على منهجهم، ويقتفي أثرَ من سبقه منهم، متبعاً خطاهم، وملتزماً بمسلكهم، فحفظ القرآن الكريم، وجوَّده واستظهره، وحفظ متون كتب الطلب من نحوٍ وصرفٍ ومعانٍ وبيان وفقه وأصول، ثم أخذ في قراءة شروحها المختصرة، ورحل إلى صعدة، فأخذ عن أخيه الأكبر العلاَّمة الهادي بن إبراهيم الوزير في جميع الفنون تحقيقاً، واستفاد منه كثيراً حتى في علم الأدب.

وأخذ عن القاضي العلاَّمة محمد بن حمزة بن مظفر، وكان المشارَ إليه في علوم العربية واللغة والتفسير.

وقرأ علم الأصول على القاضي العلاَّمة عبد الله بن حسن الدَّوَّاري.

ثم رحل إلى صنعاء، فأخذ عن القاضي علي بن أبي الخير «شرح الأصول»، وهو معتمد الزيدية في اليمن، و «الخلاصة» للرصاص، و «الغياصة الجامعة لمعاني الخلاصة» للقاضي محمد ابن يحيى بن حنش، و«تذكرة» الشيخ ابن متَّويه، وسمع عليه «مختصر المنتهى» في علم الأصول لابن الحاجب، كما قرأ هذا «المختصر» على السيد جمال الدين علي بن محمد بن أبي القاسم، ولما سَمِعَه عليه، بهَرَهُ ما رأى من صفاء ذهنه، وحُسن نظره وألمعيته وبلاغته وفطنته وبراعته، وكان يُطْنِبُ في الثناء عليه، ويُرشد طلبة العلم إليه كما سيأتي بيان ذلك قريباً.

وأخذ أيضاً عن شيوخ آخرين.

أمّا ما قرأه لنفسه من سائر العلوم، فشيءٌ كثير لا يأتي عليه الحصرُ. وكان عمدة قراءته التي أفنى فيها عنفوان شبابه ـ كما ذكر أحمد بن عبد الله الوزير في كتابه «الفضائل» ـ علم أصول الفقه وعلمَ أصول الدين (علم لطيف الكلام)، فقد جوَّد فيهما غايةَ التجويد، وفَحَصَ وحَقَّقَ وبحث، وبلغ الغاية القصوى، واطَّلع من أقوال أهل الفَنَّينَ على ما لا يكادُ يعرفه إلا مثلُه، كما يُحدثنا هو نفسه في كتابه «العواصم والقواصم» بقوله: «وقد وهبتُ أيام شبابي وزمانَ اكتسابي لكدورة علم الكلام والجدال والنظر في مقالات أهل الضلال حتى عرفتُ قولَ من قال:

لَقَدْ طُفْتُ في تِلْكَ المَعَاهِدِ كُلِّها وسَيَّرتُ طَرفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعالمِ

فَلـم أرَ إلاَّ واضعـاً كَـفَّ حَـائِـرٍ   على ذقن أو قارعاً سنَّ نادم[١]

وسبب إيثاري لذلك، وسلوكي تلك المسالك أنَّ أوَّل ما قَرَعَ سمعي، ورَسَخَ في طبعي وجوبُ النظر والقولُ بأن من قلَّد في الاعتقاد كفر، فاستغرقتُ في ذلك حِدَّةَ نظري وباكورة عمري. وما زلت أرى كُلَّ فرقة من المتكلمين تُداوي أقوالاً مريضة، وتُقَوِّي أجنحة مهيضة، فلم أَحْصُلْ على طائل، وتمثلتُ فيهم بقول القائل:

كُلٌّ يُدَاوِي سقيماً مِنْ معايِبِهِ   فَمَنْ لَنَا بصحِيحِ مَا بِهِ سَقَمُ

تحوُّله إلى علوم الكتاب والسنة:

فرجعت إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وقلتُ: لا بد أن يكون فيها براهين وردود على مخالفي الإسلام، وتعليم وإرشاد لمن اتبع الرسولَ عليه الصّلاة والسلام، فتدبّرتُ ذلك، فوجدت الشفاء كلَّه دقّه وجلَّه، وانشرح صدري، وصَلُح أمري وزال ما كنتُ به مبتلى، وأنشدت متمثلاً:

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قرّ عيناً بالإياب المسافر[٢]

ثم يقول: «هذا وإني لما رَتَبْتُ رُتُوب[٣] الكعب في مجالسة العلماء السادة، وثَبَتُّ ثبوتَ القُطب في مجالس العلم والإفادة، ولم

---

(١) ذكر ابن خلكان في ترجمة (الرئيس أبو علي بن سينا) أنهما منسوبان إليه نقلاً عن كتاب «نهاية الإقدام» للشهرستاني، أما الإمام ابن الوزير، فقد نسبهما في كتابه (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) ص ٥١ للشهرستاني نفسه في أول نهايته. وقد عقب على البيتين العلامة محمد بن إسماعيل الأمير صاحب (سبل السلام) بقوله:

لعلك أهملت الطوافَ بمعهـ   ـد الرسول ومن والاه من كل عالم
فما حار مَن يُهدى بهدي محمدٍ   ولستَ تراه قارعاً سنَّ نادم

(ديوانه ٣٤٥).

(٢) العواصم والقواصم ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣) في القاموس: رتب رتوباً: ثبت ولم يتحرَّك.

أزل منذ عرفت شمالي من يميني مشمراً في طلب معرفة ديني أتنقّل في رتبة الشيوخ من قُدوة إلى قُدوة، وأتوقّل[1] في مدارس العلوم من ربوة إلى ربوة، ولم يزل يَرَاعي للطائف الفوائد نواطف[2]، وبناني للطف المعارف لواطف، لم يكن حتماً أن يرجعَ طرفُ نظري عن المعارف خاسئاً حسيراً، ولم يجب قطعاً أن يعودَ جناحُ طلبي للفوائد مهيضاً كسيراً، ولم يكن بِدْعاً أن تنسمتُ من أعطارها روائح، وتبصرتُ من أنوارها لوائِحَ أشربت قلبي محبةَ الحديث النبوي، والعلمِ المصطفوي، فكنتُ ممن يرى الحظ الأسنى في خدمة علومه، وتمهيدِ ما تعفّى من رسومه، ورأيتُ أولى ما اشتغلتُ به ما تعيَّن فرض كفايته بعد الارتفاع، وتضيّق وقت القيام به بعدَ الاتّساع من الذبّ عنه، والمحاماة عليه، والحثّ على اتّباعه، والدعاء إليه، فإنه عِلْمُ الصدر الأول، والذي عليه بعدَ القرآن المُعَوَّل، وهو لعلوم الإسلام أصلٌ وأساس، وهو المفسر للقرآن بشهادة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ وهو الذي قال الله فيه تصريحاً: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وهو الذي وصفه الصادق الأمين بمماثلة القرآن المبين، حيث قال في التوبيخ لكل مترف إمَّعة: «إنِّي أُوتيت القُرآنَ ومِثْلَه مَعَه»[3].

رحلته إلى تعز:

رحل الإمام ابن الوزير إلى تعز إلى الإمام نفيس الدين سليمان[4] بن إبراهيم العلوي الحنفي، وبعث أخوه العلامة الهادي ابن إبراهيم الوزير معه رسالة منه إلى الإمام نفيس الدين يصف علم أخيه والغاية التي سعى من أجلها إليه جاء فيها ما يلي:

---

(١) في القاموس: وقل في الجبل: صعد.

(٢) أي أن أقلامه لم تزل سائلة بلطف الفوائد.

(٣) الروض الباسم ٥.

(٤) مولده في زبيد يوم الثلاثاء ١٦ رجب سنة ٧٤٥ ووفاته في تعز في الرابع من جمادى الأولى سنة ٨٢٥هـ. وانظر ترجمته في كتابنا (المدارس الإسلامية في اليمن) ٢٢٤.

«وأما محمد أخي، فإنه لما أخذ من علم الحديث، جذب إليه القلوب ورقَّقَها، ودعا إلى طائفةٍ من العلماء... وشوَّقها، وهو بحمد الله ممن جوَّد في علم الكلام وصنَّف، وبرَّز فيه وشنَّف، وجالس في نقله الأفاضلَ، ومارس في العلم فأفحم كل مناضل، إلاَّ أنه نزل إليكم، ففاضت بركاتُكم على أحواله وأقواله، وصار في هذا الفن لا يُجارى، وكأنَّه لقنه هذا العلمَ شيخُ بخارى[1] مع إجادته في الفنين العظيمين: علمِ الكلام وعلم الأصول، فاعترضه بعضُ الأصحاب الأكابر، وهو من ذوي الدفاتر والمحابر، فصنف كتابه[2] الكبير في الرد على المعترض. ولما صنفه تراشقته الألسنُ، وتغامزت به الأعين، وتوغَّرت عليه الصدور، وقال الناسُ فيه مقالاً، وأغضب فيه رجال رجالاً، فتصفحتُ كتابَه الكَبير، فلم أره أتى بما فيه ضراً[3]... الله هجراً، ولكنه سلك عندهم طريقاً وعراً، وأظهر مِن خلافهم أمراً إمرا، وجاء فيه مما لا يعتاد في جهتهم من الذبِّ عن علم الحديث وحملته ومن سلك مسلكه كان بين الناس غريباً، ووجب أن يتخذ من الصبر مجناً صليباً». انتهى.

وقد أخذ الإمام الوزير عن الإمام نفيس الدين العلوي وأجازه بما لفظه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، والحمد لله حمداً يُوافي نعمه، ويُكافىء مزيده، لا نحصي ثناء عليه، والصلاة والسلامُ على رسوله سيدنا محمد النبيِّ الأمي، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأصهاره وأنصاره كلما ذكرهم الذاكرون، وَغَفَلَ عن ذكرهم الغافلون.

وبعد، فإنه شرفني الله تعالىٰ، ورحل إلي، وقَدِمَ علي إلى بلدي

(١) يعني: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله.

(٢) هو (العواصم والقواصم).

(٣) أكلت الأرضة مكان الفراغ.

مدينة تعز المحروس مستقر المملكة اليمنية الرسولية عَمّرَهَا الله بالعلم الشريف سَيِّدُنا الإمام حقاً، والمجتهدُ صدقاً، الفائقُ على أقرانه من الأغصان النبوية، والأفنان المصطفوية، المؤيَّد بالتأييد الإلهي، المختارُ لله تعالىٰ، والموفَّق في اجتهاده، جمال العِترة النبوية محمدُ ابنُ إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل بن منصور بن محمد العفيف، بن المفضل الحسني السني بحمد الله تعالىٰ، وسمع من لفظي، وقرأ علي ثُلُثَ كتاب «الجمع بين الصحيحين» صحيحي البخاري ومسلم رحمة الله عليهما جمْع الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد ابن أبي نصر فتوح بن حميد الأزدي الحُميدي الأندلسي، الظاهري المذهب، من كبار تلامذة ابن حزم، مولده في سنة عشرين وأربعمائة. أجمع العلماء أنه لم يكن في العلماء له نظير في براهينه وعفّته وورعه. وتوفي سابع عشر من ذي الحجّة سنة ٤٨٨. وأجزته باقي الكتاب لأهليته لذلك، ودينه وأمانته وعلمه وبراعته، وسمع معه ما ذكرتُهُ الفقيهُ الصالحُ النبيه صالحُ بن قاسم بن سليمان بن محمد الحنبلي ثم المَعمري القادم معه، وآخرون من بلادنا.

وأخبرتهم أني قرأته على شيخي الإمام الحافظ المحقق المجتهد المقدم على مقرئي كتاب الله تعالىٰ أبي الحسن موفق الدين علي ابن أبي بكر بن محمد بن شداد الهَمْدَاني[1]، ومولده سنة ٦٩٤، ووفاته في شهر شوال سنة ٧٧١، قال: أنا الشيخُ الإمامُ الحافظ المجتهد أبو العباس شهابُ الدين أحمد بن أبي الخير بن منصور بن أبي الخير الشماخي السعدي، ومولده سنة ٦٥٧، ووفاته سنة ٧٢٩، قال: أنا والدي الإمام الحافظ المجتهد أبو الخير، مولده في سنة ٦١١، ووفاته في ٦٧٣، قال: أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن علي بن عبد العزيز الفَشَلي، قال: أنا الإمام برهان الدين أبو الفرج

(١) انظر ترجمته في كتابنا (المدارس الإسلامية في اليمن) ١٨١.

نصر بن علي الحصري البغدادي عرف بالبرهان، بروايته عن أبي الفتح عبد الباقي بن أحمد الحنفي عرف بابن البطيّ، بروايته عن الحميدي.

وأرويه عن والدي الإمام الحافظ أبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن عمر العلوي الحنفي إجازة منه لي في سنة ٧٥٢، قال: أنا الإمام أحمد بن أبي الخير بسنده.

قال والدي رحمه الله. وأخبرنا الإمام الحافظ أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمٰن المِزي، والشيخ الإمام شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان الذهبي وغيرهما، قالا: أخبرنا الشيخُ المسنِدُ علي ابن أحمد البخاري، عن الإمام أبي محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم، بروايته عن الإمام الحافظ أبي القاسم، إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي، بروايته عن المصنف الحميدي.

وأرويه عن والدي، عن الذهبي، قال: قرأته على أبي الفهم ابن أحمد السلمي، قال: نا أبو محمد بن قُدَامَة (ح) قال الذهبي: وقرأت على أبي سعيد الحلبي، عن عبد اللطيف بن يوسف، قالا: أنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي، عن الحميدي.

وأجزته وصاحبَه جميعَ رواية صحيح الإمام الحافظ، المجتهد المقلَّد، المتبع لكتاب الله وسنة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بالجامع الصحيح المسند من أمور سيدنا رسول الله ﷺ وأيامه ومغازيه أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجُعْفي رحمه الله تعالىٰ، وأخبرته أني قرأته جميعاً على الشيخ الصالح العابد الناسك شرف الدين أبي عمران موسى[1] ابن عمر بن رماح الغزولي الحنفي الدمشقي الزُّبَيْدي منسوب إلى القبيلة المعروفة رحمه الله، وقد قَدِمَ علينا ديارنا إلى تعز المحروس من البلاد

(١) انظر ترجمته في كتابنا (المدارس الإسلامية في اليمن) ٢٣٤.

اليمنية في خامس ربيع الأول سنة ٧٩٥، وتم ذلك في ثلاثة وعشرين مجلساً، آخرُها يوم الخميس ثاني وعشرين شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، ومولده في سنة ٧٤١، وتوفي عندنا في تعز المحروس في المدرسة المجاهدية في ليلة الأحد من شهر جمادى الأولى سنة ٧٩٥، وكأنه لم يصل إلينا إلا لنأخذ طريقَ الحجاز عنه محققة فللّه الحمد.

ووالدي رحمه الله وآخرون قالوا: أخبرنا بالجامع الصحيح المذكور الذي هو أصحُّ الكُتُبِ بعدَ القرآن العزيز عند جماهير العلماء الشيخ الصالحُ الكبيرُ ملحق الأصاغر بالأكابر والأحفاد بالأجداد، بعد أن استدعى به إلى مدينة دمشق المحروسة، أبو العباس أحمد بن أبي طالب نعمة بن أبي النِعَم بن علي بن حسن بن بيان، عُرف بابن الشّحنة الحجار، وهو المُعَمَّرُ الذي أجمع علماءُ مصر والشام على الأخذ عنه لقرب سنده، وعلوِّ مشايخه، ومولده سنة ٦٢٤ أو قبلها، ووفاته في خامس وعشرين صفر من سنة ٧٣٠ وبلغ عمره ١٠٦ رحمه الله تعالىٰ، قال: أنا الشيخ الصالح الحسين بن المبارك بن عمران ابن المُسلم الزَبيدي بفتح الزاي، ومات في صفر سنة ٦٣١، ومولده في سنة ٥٤٥، قال: أنا الشيخ الصالح أبو الوقت عبد الولي بن علي ابن شعيب الصوفي الهروي السِّجزي، ولد في سابع ذي القعدة في سنة ٤٥٨، ومات في ذي القعدة سنة ٥٥٣، قال: أنا الشيخ الفقيه أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود ابن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداوودي الشافعي، ولد في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٤، ومات في شوال سنة ٤٦٩، قال: أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمَّوَيْه الحموي السَّرخَسي، ومولده في سنة ٢٩٣ ومات في ذي القعدة[1] لليلتين بقيتا منه سنة ٣٨١، قال: أنا الشيخ الصالح محمد بن يوسف بن مطر الفَرَبْرِي بِفَرَبْرَ، وولد

(١) كذا الأصل وفي سير أعلام النبلاء ١٦/٤٩٣: ذي الحجة.

في سنة ٢٣١ ومات سنة ٣٢٠ قال: أنا الشيخ الإمام الحافظُ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجُعفي مولاهم، ومولده بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة ١٩٤، وتوفي في ليلة السبت هي ليلة الفطر بعدَ صلاة العشاء وذلك سنة ٢٥٦.

قلت: فبيني وبين البخاري سبعة رجال، وللمجاز له ثمانية رجال، وهذا غايةُ العلو في وقتنا، قال مشايخنا: ليس على وجه الأرض أعلى من هذا السند، وإنما كان كذلك، لأن كلاً من المشايخ عُمِّرَ مائة أو قريباً منها أو زيادة عليها.

قلتُ[١]: هو كما قال النفيسُ العلوي، فإني قد وقفت على إجازة الفقيه العالم المحدث شهاب الدين أحمد[٢] بن سليمان الأوزري الصّعدي للإمام الأعظم أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد ابن علي بن محمد بن علي بن منصور بن يحيى بن منصور بن المفضّل كتب الحديث، فوجدتُ هذه الإجازة أعلى إسناداً وأقدم ميلاداً، فإن بينَ الفقيه الأوزري وبين البخاري أحدَ عشرَ رجلاً، وللمجاز له اثني عشر رجلاً، وطريق الفقيه أحمد الأوزري ـ نفع الله به ـ طريقُ الفقهاء بني مُطَيْر، وقد حققتُ ذلك، فوجدته كذلك، وكذلك وقفت على إجازة الأوزري ـ رحمه الله ـ لحي السيد العلامة جمال الدين علي ابن محمد بن أبي القاسم الهادوي رحمه الله تعالىٰ، فوجدتُ بينَ الفقيه الأوزري وبين البخاري أحد عشر رجلاً، وبين المجاز له وبين البخاري اثني عشر رجلاً، وهذا سندٌ صحيح منه إلى البخاري، والله أعلم.

قال: ولي في الحجاز مشايخ كثيرون.

وأجزته أيضاً رواية «صحيح» مسلم بن الحجّاج بن مسلم بن

---

(١) القائل هو محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير.

(٢) انظر ترجمته في كتابنا (هجر العلم ومعاقله في اليمن) ج١/ ٤٨٤ في (حمراء العَلِب).

الورد ابن شاهنشاه القشيري، ورواية «سنن» الإمام أبي داود سليمان ابن الأشعث السِّجستاني، ورواية «جامع» الإمام أبي عيسى بن محمد ابن عيسى بن سورة بن سلمة بن الضحاك الترمذي، وكتابه «الشمائل»، ورواية «سنن» الإمام أبي عبد الرحمٰن النسائي، «وصحيح» أبي حاتِم ابن حبان، وابن خُزيمة، «ومسند» الشافعي، وأبي حنيفة، وغير ذلك.

وسمع من لفظي «الأربعين» للإمام الحافظ القطب أبي زكريا يحيى بن شرف النووي في مجلس واحد، وأجزته بحق سماعه لذلك من لفظه هو وصاحبُهُ صالح المذكور بروايتي لها قراءة على شيخي الإمام موفق الدين عليّ بن أبي بكر بن محمد بن شداد، بروايته عن جبريل، عن الحريري، عن المؤلف.

وأجزت الشريف المذكور رواية جميع ما أرويه من سائر العلوم الدينية، فليرو ذلك عني موفقاً مسدداً، بتاريخ يوم الثلاثاء ثامن شهر ذي القعدة سنة ٨٠٦، وكان ذلك في منزلي من مدينة تعز المحروس حرسها الله تعالىٰ.

وكتب العبد الفقير إلى الله تعالىٰ سليمان بن إبراهيم بن عمر ابن علي العلوي الحنفي خادم السنة النبوية، لطف الله به وغفر له وتاب عليه وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً، وحسبنا الله ونعم الوكيلُ.

رحلته إلى مكة المشرفة:

كذلك فقد رحل إلى مكة المكرمة مرتين، إحداهما سنة ٨٠٧هـ، فأخذ فيها على قاضي القضاة محمد[1] بن عبد الله بن ظهيرة الشافعي، فلما رأى مكانته العلمية وجلال قدره، وعِظَمَ محله، وعرف أنه لا يَنْتَسب إلى أي مذهبٍ، قال له: ما أحسن يا مولانا لو انتسبت إلى

(١) مولده ليلة عيد الفطر سنة ٧٥١، ووفاته ليلة الجمعة السادس عشر من رمضان سنة ٨١٧هـ.

الإمام الشافعي، فأجاب عليه، وقال: سبحان الله أيها القاضي، لو كان يجوز لي التقليد، لم أعدل عن تقليد الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادي، فقد ضمَّن إجابته النفي القاطع عن بقائه مقلداً ومتمذهباً، مثبتاً أنه نهج منهج السلف الصالح في الاعتماد على كتاب الله وسنة رسوله فقط.

وأخذ في مكة عن الشيخ نجم الدين محمد بن أبي الخير القُرشي الشافعي، والشيخ زين الدين محمد بن أحمد الطَّبريّ، والشيخ محمد بن أحمد بن إبراهيم المعروف بأبي اليمن الشافعي، والشيخ علي بن مسعود بن علي بن عبد المعطي الأنصاري المالكي، والشيخ المُعَمَّر أبي الخير بن الحسين بن الزين بن محمد بن محمد القطب القسطلاني المكي، والشيخ علي بن أحمد بن سلامة السلمي المكي الشافعي، وجار الله بن صالح الشيباني، والشريف أحمد بن علي الحُسَيني الشهير بالفاسي.

فهؤلاء الثمانية ـ وعلى رأسهم ابن ظهيرة ـ كانوا أشهر علماء مكة في ذلك الوقت، وقد أجازوا للسيد محمّد كل ما يجوز لهم روايتُهُ من كتب الفقه والحديث والتفسير والسير واللغة والعربية والمعاني والبيان والأصول الفقهية، وكتب الكلام على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، وذلك بشروط الإجازات المعروفة المشهورة[1]، وكانت هذه الإجازات في مكة المشرفة في أيام الحج المفضلة سنة ٨٠٧هـ.

اجتهاده:

لذلك فقد رسخ هذا الإمامُ في علوم القرآن والسنة حتى فاق أقرانَه، وزاحم شيوخَه وتخطاهم، وبلغ مِنْ علوم الاجتهاد ما لم يبْلُغْه أحدٌ منهم، كما أشار إلى ذلك العلامة أحمد بن عبد الله الوزير في

---

(١) طبقات الزيدية الكبرى، ترجمته الخاصة بقلم محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير.

كتابه «الفضائل» بقوله: «وله في علوم الاجتهاد المَحَلُّ الأعلى، والقدح المُعَلَّى، وبلغ مبلغ الأوائل، بل زاد، واستدرك، واختار وصنَّف، وألف وأفاد وجَمَع وقيد، وبنى وشيَّد، وكان اجتهادُه اجتهاداً كاملاً مطلقاً، لا كاجتهاد بعض المتأخرين، فإن ذلك إنما يُسمَّى ترجيحاً لأدلة بعض الأئمة المستنبطين على بعض، لا ابتداء اجتهاد واستخراج للحكم عما عُرِفَ من غير معترف انتهاض ذلك الدليل عليه بعدَ معرفته للحكم نفسه وللدليل، ولكيفية الدلالة، وانتفاء المعارض، وشروط الاستدلال في العقليات والسمعيات، والتبحر في علم الرواية، ومعرفة الرجال وأحوالهم في النقد[1]، والاعتدال والوفيات والأنساب والشيوخ، والتعمق في علم الأصوليين والعربية، والتوغل في معرفة الكتاب العزيز، والاطّلاع السديد على تفسيره، وكلام المفسرين. ولم يكن بهذه الصفة بغير شك ولا مِرية غيرُ هذا السيد الإمام الأكبر التقيّد في هذا الشأن الذي شَهِدَ له بذلك جميعُ أهل الزمان من الأقارب والأباعد، والمخالف له في الاعتقاد والمساعد، ولقد كان آيةً في زمانه لم يأت الزمانُ بمثلها.

وأمّا تلك المقامات العالية، والاستخراجات الأصلية من الأدلة الكلية مثل ما صنعه في استخراجاته واختياراته في مسائل الاجتهاد، فهم عن ذلك بمراحل؛ وكيف يكون ذلك؟ وهم يغلطونَ في أسماء الرجال المشهورين، وتلتبِسُ عليهم أزمانُهم، ويُصحِّفُون من أسماء كبارهم، ومن جَهِلَ الاسم كيف يعرف الحال؟ وكثيراً ما يضبِطُون ألفاظاً في متون الحديث[2] مصحفة تصحيفاً يُفسد المعنى، ولا يُعرف منه المراد، ولا يَصِحُّ معه ظن، ولا يصدق عنده اعتقاد. وهو الخبيرُ الخِرِّيتُ الماهِر من[3] ذلك المقصد، وبما تدورُ عليه من معرفة

---

(١) في الأصل: التقيد.
(٢) في نسخة: الأحاديث.
(٣) في نسخة: في.

التخصيص والنسخ أعرفُ وأقعد، والترجيح عند التعارض وغير ذلك من الأحكام المترتبة على ذلك وله القُوّة والمَلَكَةُ في تقوية بعض الأدلة بالطريق التي يقوّيها على اختلاف أنواع ذلك بوجه صريحٍ، وتصرفٍ صحيح، ولفظ فصيح، وحجة لازمة وأدلة جازمة عقلية ونقلية، وفي تضعيف بعض الأدلة مثل ذلك لا يتبع في ذلك إلا محض الدليل، ولا يكتفي فيه بمجرد أنه قيل كما عليه أكثر الناس تساهلاً وعدم تمكن واقتدار.

وأمره في التفسير لكلام رب العزة كذلك في معرفته نفسه، ثم معرفته قراءته ومعرفة المفسّرين والنقلة عنهم، ومعرفة أحوال الجميع، ومعرفة أسباب النزول وزمانه ومكانه، ومعرفة الألفاظ، وكثيراً مما يتعلق بالتفسير وآيات الأحكام، وتنبني عليه قواعدُ شرع الإسلام مما يطولُ ذكرُه».

ثم قال: «وإنما الغرض التعريفُ أن حال هذا الرجل ـ رحمه الله ـ ليس كحال غيره، وأن اجتهادَه كاجتهاد أئمة المذاهب، لا كالمخرجين[1] ومجتهدي المذاهب، ولا كالمرجحين الذين لا يُرجِّحون بغير المعقول، ويشقّ عليهم معرفة الآثار النقلية، والاطّلاع على الإسنادات، ومعرفة الرجال، ويَعْسرُ عليهم الأخذُ من لطائف أدلةِ الكتاب والسنة ومعرفتها ومعرفة أنواع الحديث ومراتبه وأقسامه من الصحة والحسن ونحوها التي عليها مدارُ الاجتهاد والترجيح والانتقاد، وليس لِغيره مثلُ هذه الأهلية، ولا أعطاهم الله ـ سبحانه ـ مثل هذه العطية»[2].

وما أصدق ما قاله شيخُ الإسلام الشوكاني رحمه الله فيه حيث يقول: «والذي يَغْلِبُ على الظن أن شيوخَه لو جُمِعُوا في ذاتٍ واحدة، لم يَبْلُغْ علمُهم إلى مقدار علمه، وناهيك بهذا، ثم يقول: بعدَ كلامٍ

---

(١) كأبي طالب والمؤيد بالله الهارونيين.

(٢) الفضائل.

طويل: «ولو قلتُ: إن اليمنَ لم تُنجِبْ مثلَه لم أُبعِدْ عن الصواب»[١].

معارضة علماء التقليد لاجتهاده وإشهار الحرب الكلامية عليه:

ولما بلغ من العلم هذه الدرجة العليا، وبخاصة في علوم القرآن والسنة التي بَرَّزَ فيها، وأقبل على العمل بكتاب الله، وما صَحَّ من سنة رسول الله ﷺ داعياً إلى الاجتهاد، ومندِّداً بعلماء عصره الذين التزموا بالتقليد، لم يَرُقْ لهم خروجه على ما أَلِفُوه من التقليد ودعوته لهم إلى نبذه، والرجوع إلى العمل بكتاب الله وسنةِ رسول الله ﷺ، فناصبوه العداء، وشنعوا عليه، وشكَّكوا في دعوته، وصدُّوا الناس عن سلوكِ هذا المنهج القويم، وقد وصف لنا ما جرى له منهم بقوله: «وإني لما تمسّكت بعروة السنن الوثيقة، وسلكت سنن الطريقة العتيقة تناولتني الألسنة[٢] البذيئة من أعداء السنة النبوية، ونسبوني إلى دعوى في العلم كبيرة، وأمور غير ذلك كثيرة حرصاً على ألاَّ يُتَّبع ما دعوت إليه من العمل بسنة سيد المرسلين والخلفاء الراشدين والسلف الصالحين، فصبرت على الأذى، وعلمت أن الناس ما زالوا هكذا:

ما سَلِمَ اللَّه مِنْ بَرِيَّتِه ... ولا نَبِيُّ الهُدى فَكَيْفَ أنا؟[٣]

وقد تَصَدَّر هذه المعارضة شيخُه العلاَّمة جمالُ الدين علي[٤] ابن

---

(١) البدر الطالع ٢/ ٩٢.

(٢) وهذا هو ما جرى للعلماء المجتهدين في اليمن كالإمام المقبلي، فقد حورب من قبل أعداء السنة حتى اضطر إلى بيع بيته وماله، وهاجر بأهله إلى مكة المكرمة، وكذلك الإمام محمد بن إسماعيل الأمير، وجرى ما هو أكثر للإمام شيخ الإسلام الشوكاني حتى تمالئوا على قتله في جامع صنعاء، وقد ذكر ذلك في كتابه (أدب الطلب).

(٣) قبله:

وليس يخلو الزمان من سفلٍ ... فيه ولا من خيانة وخنا

(٤) هو مؤلف تجريد الكشاف، ويقال: إن له تفسيراً حافلاً في ثمان مجلدات. مولده سنة ٧٦٩ ووفاته سنة ٨٣٧. والعجيب في الأمر أنه لم يقتصر في طعنه=

محمد بن أبي القاسم، الذي جرت بينَه وبينَ تلميذه منازعة في مسائل كثيرة كما ذكر صاحب «الفضائل»، وقال: «وكان من شيخه طَرَفٌ من الحَيْفِ في السؤالات، وتحويلٌ لما يرويه الإمام محمد بن إبراهيم على صفة أنه يأخذ من كلامه مفهوماً لم يقصده، أو قد صرَّح بنفيه والإجماعُ منعقد على عدم اعتبار مفهومٍ وقع التصريحُ بخلافه، وما كان ذلك إلا لمكان دعوى الاجتهاد».

ثم قال: «وترسَّلَ السيدُ جمال برسالةٍ[1] حكى فيها كلامَ الإمام محمد بن إبراهيم، وأجابه على حسب ما حكاه وطلح في موضع التطليح، وساقه مساق العلماء، وعلى منهاج الاستدلال والجدل الكامل في أحسن مساق وأوفى عبارة».

وقال محمد[2] بن عبد الله بن الهادي في ترجمته للإمام محمد بن إبراهيم: «وقد نسب ـ أي جمالُ الدين علي بن محمد ابن

= على محمد بن إبراهيم الوزير وحده، ولكنه طعن في أئمة المذاهب الإسلامية: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، رحمهم الله جميعاً، وكفَّر الإمام الرازي، وقال: إنه وأصحابَه كفَّار عَمْدٍ وتصريح، لا خطأ وتأويل. انظر ص٣٠٨ وص٣٣١ من الجزء الثالث من «العواصم والقواصم».

وانظر كلام الإمام محمد بن إبراهيم الوزير في الدفاع عن الإمام مالك حين خاطب شيخه المذكور بقوله: ومَنْ أنت حتى ترفع رأسك إلى القدح في أهل هذه المرتبة العزيزة؟ بل قد بان بكلامك أنك قصرت عن العلم بأنهم فوقك، وكيف تطمع في أنك من أهل مرتبة لم تعرفها؟ ولم تعرف مكانك في البعد منها، وما أنصفتَ في جوابك عن الإمام مالك.

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ ... فشرُّكما لخيركم الفداءُ

العواصم والقواصم ٤/ ٢٤ ـ ٢٦.

(١) ألفها سنة ٨٠٨ كما ورد ذكرها في «العواصم والقواصم» ٢/ ٣٥٦.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الهادي بن إبراهيم الوزير. كان عالماً مبرزاً في علوم العربية، وله معرفة قوية بالأنساب، وله خط جميل.

مولده بصعدة في شعبان سنة ٨١٠ ووفاته في حدة سنة ٨٩٧.

القاسم في رسالته إلى محمد بن إبراهيم ـ القولَ بالرؤية، وبِقِدَم القرآن، ومخالفته أهل البيت، وقد بناها على مجرَّد التوهمات الواهيةَ والتخيّلات الباردة». وقال شيخ الإسلام الشوكاني في «البدر الطالع» في ترجمة علي بن محمد بن أبي القاسم المذكور: «ولكنه لما اجتهد السيدُ محمد بن إبراهيم، ورفض التقليد، وتبحَّر في المعارف، قام عليه صاحبُ الترجمة في جملة القائمين عليه، وترسَّل عليه برسالة تَدُلُّ على عدم إنصافه، ومزيد تعصبه سامحه الله».

مع أن جمالَ الدين علي بن محمد بن أبي القاسم كان من المعجبين بتلميذه الإمام محمد بن إبراهيم، وكانَ يَحُثُّ طلبةَ العلم بما فيهم ابنه على الأخذ عنه، ويُثني على علمه ونبوغه كما وصف ذلك أحمد بن عبد الله الوزير في كتابه «الفضائل» بقوله: ولقد حكى لنا السيدُ الإمام علي بن محمد بن أبي القاسم ـ وكان من أجل مشايخه لما سئل عنه ـ وكان في نفسه عليه ما يقع في نفوس العلماء، فقال: «هو أذكى الناس قلباً، وأزكاهم لُبّاً كأنَّ فؤادَه جذوة نار تتوقد ذكاءً، وغيرُه أكبرُ منه سناً ومثله وأصغر من علماء زمانه المصنفين لم يبلغوا هذا المحلّ، إنما غايةُ اجتهادهم أن يقولوا: هذا أولى، لأنه حاظر، والحظر أقدم من الإباحة، أو عام ومعارِضُه خاص، أو مطلق ومعارضه مُقَيَّد ونحو ذلك»[1].

ورغم هذا الثناء والتقدير من شيخه المذكور، فإنه قد تحوَّل من مادح إلى قادح، ومن صديق إلى كاشح، ومن مُعْجَب به وبعلمه ونبوغه إلى مسفِّهٍ له، ومنفِّرٍ للناس عنه؛ مما آلم الإمام الوزير وأحزنه، فقال معاتباً شيخه:

عَـرَفْـتَ قَـدْري ثُـمَّ أَنْـكَـرْتَـهُ   فـمـا عـدا بـالـلّـه مـمـا بـدا؟

---

(١) الفضائل.

فـي كـل يـوم لـك بـي مـوقـف ... أَسْـرَفْـتَ بـالـقَـوْلِ بِـسُـوءِ الـبَـدَا
أَمْـسِ الـثَّـنَـا والـيـومَ سوءُ الأَذَى! ... يَا لَيْتَ شِعري كيفَ تُضْحي غَدا؟
يَـا شَـيْـبَـةَ الـعِـثْـرَةِ فـي وَقْـتِـه ... ومَـنْـصِـبَ الـتَّـعـلـيـم والاقْـتِـدا
قَـدْ خَـلَـعَ الـعِـلْـمُ رَداءَ الـهُـدى ... عَـلـيـكَ، والـشَّـيـبُ رِداءَ الـرَّدى
فَـصُـنْ رِدَائـيـكَ وطَـهِّـرْهُـمـا ... عَـنْ دَنَـسِ الإسـرافِ والاعـتِـدا

ثم بيّن الإمام ابنُ الوزير ما جرى بينه وبين شيخه بقوله: «إلاَّ أنه لما كثر الكلامُ وطال، واتّسع مجالُ القِيل والقال، جاءتني رساله محبّرة، واعتراضاتٌ محررة، مشتملة على الزواجر والعظات، والتنبيه بالكلم المُوقِظات، زعم صاحبُها أنه من الناصحين المحبين، وأنه أدَّى بها ما عليه لي من حق الأقربين، وأهلاً بمن أبدى النصيحة، فقد جاء الترغيب إلى ذلك في الأحاديث الصحيحة، وليس بضائرٍ إن شاء الله ما يَعْرِضُ في ذلك من الجدال مهما وُزِنَ بميزان الاعتدال، لأنه حينئذ يدخل في السنن، ويتناوله أمر ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقد أجاد من قال وأحسن:

وجِدالُ أَهْلِ العِلْمِ لَيسَ بضَائرٍ ... ما بَيْن غَالِبِهم إلى المَغْلُوب

وعقب الإمام ابن الوزير على ما ورد في هذه الرسالة بقوله: «بيد أنها لم تَضَعْ تاجَ المرح والاختيال، وتستعمِل ميزانَ العدل في الاستدلال، بل خُلِطَتْ مِنْ سيما المختالين بشوب، ومالت من التعنت في الحجاج إلى صوب، فجاءتني تمشي الخُطَرَا، وتميس في محافِل الخُطَرا، مفضوضةً لم تُختم، مشهورةً لم تكتم، متبرجةً قد كشفت حجابِها، وطرحت نِقابها، وطافت على الأكابر، وطَاشت إلى الأصاغر حتى مضَّت أيدي الابتذال نضارتهَا، وافتضت أفكار الرجال بكارتها، وخيرُ النصائح الخفي، وخيرُ النُّصَّاح الحفي، وخيرُ الكتاب المختوم، وخير العتاب المكتوب.

ثم إني تأملت فصولها، وتدبّرت أصولها، فوجدتها مشتملة على

القدح تارةً فيما نُقِلَ عني من الكلام، وتارةً في كثير من قواعد العلماء الأعلام، وتارة في سنة رسول الله عليه أفضل الصّلاة والسّلام، فرأيتُ ما يخُصُّنِي غير جديرٍ بصرف العناية إليه، ولا كثير يستحق الإقبال بالجواب عليه.

وأما ما يختصُّ بالسنن النبوية، والقواعِد الإسلامية، مثلَ قدحه في صحة الرجوع إلى الآيات القرآنية، والأخبار النبوية، والآثار الصحابية، ونحو ذلك من القواعد الأصولية، فإني رأيتُ القدحَ فيها ليس أمراً هيّناً، والذب عنها لازماً متعيناً، فتعرضتُ لجواب ما اشتملت عليه من نقض تلك القواعد الكبار التي قال بها الجلَّةُ من العلماء الأخيار»(١).

وكان كتابه العظيم «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» هو جوابه على تلك الرسالة، وسيكتب الله به النفع لمن يريد به خيراً، ولولا تلك الرسالة التي لم يبق لها وجود فيما أعلم لما ظهر كتاب «العواصم والقواصم».

وقد جاء في مقدمته قوله: «وقد قصدتُ وجه الله تعالىٰ في الذبِّ عن السنن النبويَّة، والقواعد الدينية، وليس يضرني وقوفُ أهل المعرفة على مالي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، لاعترافي بأني لست من نُقَّاد هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، لكني لم أجد من الأصحاب من تصدّى لجواب هذه الرسالة لما يجُرُّ إليه ذلك من سوء القالة، فتصديتُ لذلك من غير إحسان ولا إعجاب، ومَنْ عَدِمَ الماء تَيمَّمَ بالتراب، عالماً بأني لو كنت باريَ قوسها ونبالِها، وعنترة فوارسها ونزالها، فلن يخلو كلامي من الخطأ عند الانتقاد، ولا يصفو جوابي من الكدر عند النقاد، فالكلامُ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو كلامُ الله الحكيم، وكلامُ من شهد بعِصمتِهِ القرآن الكريم؛ وكُلُّ كلام بعدَ ذلك، فله خطأ

---

(١) الروض الباسم ١/٩ و ١٠.

وصواب[1]، وقِشر ولُباب، ولو أن العلماءَ رضي الله عنهم تركوا الذبَّ عن الحق خوفاً من كلام الخلق، لكانوا قد أضاعوا كثيراً، وخافوا حقيراً، وأكثر ما يخافُ الخائفُ في ذلك أن يَكِلَّ حسامُهُ في مُعْتَرَكِ المناظرة وينبو، ويعثر جوادُهُ في مجال المحاجة ويكبو، فالأمر في ذلك قريب؛ إن أخطأ فمن الذي عُصِمَ؟ وإن خُطِّىء فمن الذي ما وُصِمَ؟ والقاصد لوجه الله تعالىٰ لا يخافُ أن يُنقد عليه خللٌ في كلامه، ولا يهابُ أن يُدل على بطلان قوله، بل يحبّ الحقَّ من حيث أتاه، ويقبل الهُدى ممن أهداه، بل المخاشنةُ بالحق والنصيحة أحبُّ إليه من المداهنة على الأقوال القبيحة، وصديقك مَنْ صَدَقَكَ لا من صدَّقك. وفي نوابغ الحكمة: عليك بمن ينذر الإبسال والإبلاس، وإياكَ ومن يقولُ: لا باسَ ولا تَاس.

ثم إن الجواب لما تم ـ بحمد الله تعالىٰ ـ اشتمل على علوم كثيرة، وفوائد غزيرة أثرية ونظرية، ودقيقة وجلية، وجدلية وأدبية، وكلُّها رياض للعارفين نَضِرة، وفراديسُ عند المحققين مُزْهِرَة، لكنني وضعته وأنا قوي النشاط، متوفر الداعية، ثائر الغَيرة، فاستكثرتُ من الاحتجاج رغبةً في قطع اللجاج، فربما كانت المسألة في كتب العلماء رضي الله عنهم مذكورة غيرَ محتج عليها بأكثر من حجة واحدة، فأحتج عليها بعشر حُجج، وتارة بعشرين حُجة، وتارة بثلاثين حجة، وكذلك قد يتعنَّتُ صاحبُ الرسالة، ويُظهِرُ العُجْبَ مما قاله، فأحبُّ أن يظهر به ضعفُ اختياره، وعظيمُ اغتراره، فأستكثرُ من إيراد الإشكالات عليه، حتى يتضِحَ له خروجُ الحق من يديه، فربما أوردتُ عليه في بعض المسائل أكثر من مئتي إشكال على مقدار نصف ورقة»[2].

(١) لعله يشير إلى ما قاله الإمام مالك رحمه الله: «كلٌ يؤخذ من كلامه ويترك إلاّ كلام صاحب هذا القبر»، ويقصد به رسول الله ﷺ.

(٢) الروض الباسم ١/١١ و١٢.

وهذا هو ما أشار إليه شيخ الإسلام الشوكاني في مَعْرِض كلامه عن «العواصم والقواصم» في أثناء ترجمته لمؤلفه، فإنه قال: «ومن أراد أن يعرِف حالَه ـ أي حال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ـ ومقدار علمه، فعليه بمطالعة مصنفاته، فإنها شاهد عدلٍ على علو طبقته، فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يَبْهَرُ لُبَّ مطالعه، ويعرف بقصر باعه بالنسبة إلى علم هذا الإمام كما يفعله في «العواصم والقواصم»، فإنه يورد كلامَ شيخه السيد العلاَّمة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه، ثم ينسفه نفساً بإيراد ما يُزَيِّفُهُ من الحجج الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قوّته استخراج البعض منها»[1].

ويستطيع من يقرأ كتاب «العواصم والقواصم» أن يتبين مستوى حجج رسالة شيخه التي اعترض بها عليه مما يورده الإمام ابن الوزير في كتابه «العواصم والقواصم» ليرد عليها ويفنِّد مزاعمَها المتهافتة وشواهدَها الواهية بحُججٍ ناصعةٍ وأدلَّةٍ قويَّةٍ وبراهين واضحة؛ فمنها ـ مثلاً ـ ما جاء في «العواصم والقواصم» وهو قوله: «وإن كلام السيد هذا ـ أي مؤلف الرسالة ـ يوجب على الله أن يبعث الموتى من العرب للمجتهد حتى يشافهوه بلغتهم أو نحو ذلك من المعجزات أو خوارق العادات». وقد ردّ عليه الإمام ابن الوزير بقوله: «والسيد في هذا جاوز حد العرف في التعنت (تأمل)، وخلع عروة المراعاة لطريق أهل العلم، وأتى بما لا يوافقه عليه أحدٌ من العلماء والمتعلمين، ولا سبقه إليه سابق من السلف الصالحين»[2].

ولما انقطع الإمام محمد بنُ إبراهيم الوزير للكتاب والسنة، واشتغل بعلومهما، وامتلأت جوانِحُه بحُبِّهما أنشأ سنة ٨٠٨ قصيدة

(١) البدر الطالع ٢/ ٩٠.

(٢) العواصم والقواصم ١/ ٤٢٢.

دالية طويلة يفخر ويعتزّ بتمسكه بهما وحدَهما، وبحبه لرسول الله ﷺ فقال:

ظَلَّت عـواذِلُـه تَـرُوحُ وَتَـغْـتَـدي … وتُعِيدُ تَغْنِيفَ المُحِبّ وتَبتَدِي
واللَّومُ لا يَثني المُحِبَّ عن الهوى … ويَـزِيـدُ تَـولـيـعَ الـفُـؤاد الـمُـغْـمَـدِ
إنَّ المحبَّ عنِ المَلاَمَةِ في الهَوَى … في شَاغِلٍ لَوْلا اللَّوائم يَغْتَدِي
ألهى المُحِبَّ عن الملام وصَدَّه … بيـن الـجَـوَانِـحِ لَـوعـةٌ لـم تَـبْـرِدِ
وخُـفُـوقُ قَـلْـبٍ لا يـقـرُّ قـرارُه … وسُفُوحُ دمعٍ صَوبُه لم يَجْمَدِ
قُلْ للعَذُول: أَفِقْ فلستَ بمُنتَهٍ … عَنْ حُبِّ أكْمَلِ مَنْ تَحَلَّى فَأَبْعَدِ
لَوْ لُمْتَنِي في الغَوْرِ لم أَشْتَقْ إلى … شطَّيْه أو في نَجْدِهِم لم أُنجدِ
أَوْ كانَ لَوْمُكَ في التَّصَابِي ما صَبا … قَلْبي، ولا غَلَب الغَرام تجَلُّدي
أو لُمْتَنِي في اللَّهو لم أَطْرب إلى … نَغَم الغناء من الغَريض ومَعْبَدِ
أو لُمْتَنِي في المالِ لم يَسْتَهْوِني … نَظَرُ اللُّجَيْنِ ولا نُضَارُ العَسْجَد
أو لُمْتَني في غير حُبِّ مُحمَّدٍ … لحَسبْتُ أَنَّكَ بالنَّصيحة مُرشِدي
أَوْ لَـو أريـتَ مـحَـبَّـةً مـثـلاً لـه … لِلمُهْتَدي والمُرْتَجِي والمُجتدي
يُـهديه أو يُجديه أو يُغنيه عَنْ … نُـورِ الـرَّسـولِ الـصَّـادع الـمُـتـوقِّـدِ
هَيهَاتَ ما ابْتَهَجَ الوُجُودُ بمثلِهِ … فَدَعِ اللَّجاجَ فمِثْلُه لَم يُوجَد
يا صَاحِبيَّ على الصَّبابة في الهوى … مَنْ مِنْكُما في حُبِّ أحمَدَ مُسْعِدِي؟
حَسبي بأنِّي قد شُهِرْتُ بحبِّه … شرَفاً ببُردتِهِ الجميلة أرتدي
لـي بَـاسِـمِـهِ وبـحُـبِّـه وبـقـربـه … ذِمَمٌ عِظامٌ قد شدَدْتُ بها يدي
ومُـحَـمَّـدٌ أوفـى الـخَـلائـق ذِمَّـةً … فَلْتَبْلُغَنَّ بي الأَمَاني في غِدِ
يـا قَـلْـبُ لا تَـسْـتَـبْـعِـدنَّ لِـقـاءَهُ … ثِقْ باللِّقاءِ وبالوَفاء فكأَنْ قَدِ
يـا حبَّذَا يَوْمُ القِيامَة شُهرتي … بَينَ الخلائق في المقَام الأَحْمَدِ
لـمِحبَّتِي سُنَن الرَّسول وإنَّني … فيها عَصَيتُ مُعَنِّفي ومُفنِّدي
وتَركْتُ فيها جِيرَتي وعَشِيرتي … ومَحَلَّ أترابي ومَوضِعَ مَولِدي
فَلأَشْكُونَّ عليهِ شكوى مُوجَعٍ … مُـتَـظَـلِّـمٍ مُـتَـجَـرِّمٍ مُـسْـتَـنْـجِـدِ
مِمَّا لَقيتُ مِنَ المتاعِبِ والأَذَى … في حُبِّهِ مِن ظَالِمِيَّ وحُسَّدِي

وأقولُ: أَنجِدْ صادقاً في حُبِّه ... مَنْ يُنجِدُ المَظلُومَ إنْ لَمْ يُنجَدِ؟
إنّي أُحِبُّ محمَّداً فوقَ الوَرى ... وَبِهِ كَما فَعَلَ الأَوائِلُ أَقْتَدِي
فَقَد انقضت خَيْرُ القُرونِ ولمْ يَكُنْ ... فيهم بغيرِ محمَّدٍ مَنْ يهتدي
وأُحِبُّ آلَ مُحَمَّدٍ نفسي الفِدا ... لَهُمُ فَما أَحَدٌ كآلِ محمَّد
هُمْ بابُ حِطَّة والسَّفينة والهُدَى ... فيهم، وهُمْ للظَّالِمِينَ بِمَرْصَدِ
وهُمُ النُّجُومُ لِخَيْرِ مُتَعَبِّدِ ... وهُمُ الرُّجُومُ لِكُلِّ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ
وهُمُ الأَمَانُ لِكُلِّ مَنْ تَحتَ السَّما ... وَجَزَاءُ أَحْمَد وُدُّهُمْ فَتَوَدَّدِ
والقَوْمُ والقرآنُ فاعْرِفْ فَضْلَهُمْ ... ثَقَلانِ للثَّقَلينِ نَصُّ مُحَمَّدِ
ولهُمْ فَضائِلُ لَستُ أُحْصِي عَدَّها ... مَنْ رَامَ عَدَّ الشُّهْبِ لَمْ تَتعدَّدِ
وكَفَى لهُمْ شَرَفاً ومَجْداً بَاذِخاً ... شَرْعُ الصَّلاةِ لهُم بكُلِّ تَشَهُّدِ
سَنُّوا مُتَابَعة النَّبيِّ، ولمْ يَكُنْ ... لهُمُ غرامٌ بالمَذَاهِبِ عَنْ يَدِ
قَدْ خَالَفُوا آباءَهم جهراً ولَمْ ... يَتَقَيَّدُوا إلاَّ بسُنَّةِ أَحْمدِ
أَو لَمْ يَشِعْ ما بَيْنَ آلِ مُحَمَّدٍ ... ذِكْرُ الخِلافِ لِمُغْورِيْن ومُنْجِدِ
قَدْ خَالَفَ الهَادِي بَنُوهُ لِصُلْبِهِ ... مع قربهم كمحمدٍ وكأَحْمَدِ[1]
والسَّيِّدان على اتِّباع نُصُوصِه ... قد خالفا ما نصَّه بتعمدِ[2]
بَلْ حَرَّمَ الجُمْهُورُ مِنْ سَادَاتِهِم ... تَقْلِيدَ مَوْتَاهُم بِغَيرِ تَرَدُّدِ
ذَا مَذْهَبُ الجُمهورِ فيما قَالَه ... يَحيَى بنُ حمزةَ وَهُو أَوْثَقُ مُسنِد
وكذا ابنُ زيدٍ[3] قَالَ ذَاكَ وغيرُه ... وهُو اختيارُ النَّاطِقِ المُتَشَدِّد
واسأل كِتابَ العِقدِ[4] عما قلت والـ ... ـمجزي[5] وسائِل من بدا لك واسند
وانْظُر إلى إنصافِ أَهْلِ البَيْتِ لَم ... يَغْلُوا ولمْ يَتعصَّبوا في مَقْصَدِ
بَلْ خَالَفُوا آباءَهُم وتَبَيَّنُوا ... وجْهَ الصَّوابِ تحَرياً للأَرْشَدِ

---

(١) هما محمد المرتضى، وأحمد الناصر ابنا الإمام الهادي يحيى بن الحسين.
(٢) السيدان هما المؤيد الهاروني وأخوه أبو طالب.
(٣) هو عبد الله بن زيد العنسي.
(٤) هو ليحيى القرشي.
(٥) هو للسيد أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني.

وأَنا اقتَديتُ بهِمْ فأَنْكَرَ قُدْوَتي من طُغمة[1] الغَوْغَاءِ كُلُّ مُبلّد

قَالُوا: نُقَلِّدُهم وإن ماتُوا علَى رَأْيِ المُؤيَّد ذِي العُلُوم الأَوْحَدِ

قُلْنَا لهُم: لَسْنا نَعِيبُ عليكُمُ مَنْ قَلَّدَ الأَمْوَاتَ فَهْوَ مُؤَيَّدِ

هُمْ قَلَّدُوهم واقتدَيْتُ بهِمْ وكَمْ بَينَ المُقَلِّد في الهوى والمُقتدي

مَنْ قَلَّد النُّعْمَانَ أَمْسَى شَارِباً لِمُثَلَّثٍ نَجِسٍ خبيثٍ مُزبد

ولَو اقتدى بأبي حنيفَةَ لمْ يَكُنْ إلاَّ إماماً خاشعاً في المسجِدِ

ومَنِ اهتَدى فقد اهْتَدَى نصاً وإجـ ـماعاً ولَيسَ كَذاكَ مَنْ لَمْ يَقْتَدِ

والكُلُّ مُختَارٌ لأَقْوَم مَنْهَجٍ فيما تَحَرَّاه وأعذَبِ مَوردِ

والكُلُّ إخوَانٌ ودِينٌ واحِدٌ كُلٌّ مُصيبٌ في الفُروعِ ومُهْتَدِي

هَذي الفروعُ وفي الأُصولِ عَقِيدَتي مَا لاَ يُخَالِفُ فيه كُلُّ مُوحِّدِ

ديني كأَهْلِ البَيْتِ دِيناً قَيِّماً مُتَنزّهاً عَنْ كُلِّ مُعْتَقِدٍ رَدِي

لكِنَّنِي أَرْضى العَتِيقَ[2] وأختَمِي مِنْ كُلِّ قولٍ حادِثٍ مُتجدِّدِ

إنَّ السَّلامَة في العَتِيقِ وإنَّهُ كالشَّمسِ واضِحَةٌ لِعينِ المُهْتَدِي

ويَشُكُّ فيه ذوو الجَهَالَةِ والعَمَى والشَّمْسُ لا تَبدُو لِعَيْنِ الأَرْمَدِ

ويصدّ عنه مَنْ يصعد[3] فِكرَهُ في الغامِضَاتِ وعِلم كُلِّ مُسَوَّدِ

ما كانَ للإسلامِ وقْتَ مُحَمَّدٍ دَرْسٌ سِوى القُرآن للمُتعبِّدِ

ودَعائِمُ الإسلام كانَتْ وَقْتَه خَمساً يُعَدِّدُها لِكُلِّ مُشَهِّدِ

فلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ مَنْ لَمْ يَعْتَمِد دَرْسَ الأَدِلَّةِ كَافِراً كالمُلْحِدِ

ما عِنْدَهُمْ في كُلِّ بَرٍّ عَابِدٍ مُتَأَلِّهٍ مُتَفَرِّدٍ مُتَجَرِّدِ

لاَ يَعْرِفُ الأَغْرَاض لا لَفظاً ولا مَعنى يُكفَّرُ كالَّذي لمْ يَسْجُدِ؟

كَلاَّ، ورَبِّ مُحَمَّدٍ مَا دِينُهُ يَقْضِي بِكُفْرِ التَّائِبِ المُتهجِّدِ

---

(١) هكذا وردت الكلمة في الأصل وفي نسخة ضمخة.

(٢) المراد بالعتيق هنا أقوال أهل البيت المتقدمة على ما تضمنه (الجامع الكافي). كما في طبقات الزيدية ليحيى بن الحسين.

(٣) هكذا وردت الكلمة، وفي نسخة يضغد.

إلاَّ الَّذي تَركَ الشَّرائِعَ جَاحِداً ... لِلدِّينِ كالمُرتَدِّ والمُتَهَوِّد
قَالُوا: الأدِلَّةُ لَيسَ تَخفَى جُملةً ... قُلنا لَهُم: ذَا قَولُ مَنْ لَمْ يَنْقُد
إنْ كانَ للإسْلامِ عَشرُ دَعائم ... فَأنْقُص من العَشرِ الدَّعائِمِ أو زِدِ
تَجِدِ الزِّيادة في الدَّليلِ مُحالَةً ... والنَّقص للبُرهَانِ أعظمُ مُفْسِدِ
يا لائِمي في مذهبي باللَّهِ قُل ... لِم زِدْتَ في الإسلامِ ما لم يُعْهَدِ؟
ما لِلسِّنين قَضَت ولم يَنطِق بذا ... خَيرُ البريَّة مَرَّةً في مشهدِ؟
أو لَمْ يَكُنْ أولى بتَبيين الهُدى ... والمُشكلاتِ لأحمَرٍ ولأسودِ
ما كَانَ أحمدُ في المِرا مُتدرِّباً ... كَلاَّ، ولا للمُشكلاتِ بِمُورِدِ
بَلْ كانَ يَأمُر بالجهادِ لِكلِّ مَنْ ... جَحَدَ الدَّليل وكُلِّ باغٍ مُعْتَدِ
حَتى اسْتَقامَ الدِّينُ وانتعشَ الهُدَى ... بالمَشرفيَّة والقَنا المُتَقَصِّد
قَامَتْ شَريعَتُهُ لِكُلِّ مُجرِّبٍ ... مَاضِي المَضارِبِ لا يَكِلُّ مُجلِّدِ
وَكَذَاكَ أهْلُ البيتِ ما زَالُوا على ... مِنهاجِهِ مِنْ قائمٍ أو سَيِّدِ
وَاقْرَ «المُهذَّب» تَلْقَ ما أطلقتُهُ ... قَدْ نَصَّهُ المَنصورُ[1] غَيْرَ مُقيَّدِ
واقرأ كِتَابَ «الجَامِعِ الكَافِي»[2] عَلى ... نَهجِ الأوائِلِ إنَّه يُروي الصَّدي
إذْ لَمْ يَكُنْ سَلَفٌ سِوى أَرْبَابِهِ ... لِلمُدَّعي لِوَلاءِ عِترةِ أحمدِ
وكَذلِك الرَّسيُّ دَانَ وإنَّهُ ... هُوَ في نُجوم الآلِ مِثلُ الفَرْقَدِ
وكَذَا المُؤيَّدُ[3] قَالَ ذَاكَ مُصرِّحاً ... وأرى ابنَ حَمْزَةَ فيه لَمْ يَتَرَدَّدِ
وكَذَاكَ يحيى[4] نَجْمُ آلِ مُفضَّلٍ ... أعني ابنَ منصورٍ كريم المحْتَدِ
قَدْ قَالَ ذاكَ ولَمْ يَزَلْ بلزومِهِ ... يُوصي، ومِنْ شِعرٍ لَهُ في المَقصدِ
يَكْفيكَ مِنْ جهةِ العقيدَةِ مُسلمٌ ... ومن الإضافة حَيدَريٌّ أحْمدي
وكَذَاكَ شَيَّدَ ذَا سُلالَةُ قَاسِمٍ ... يحيى الأخير الحَبْر أيّ مُشيّدِ

---

(١) هو عبد الله بن حمزة.

(٢) هو لمحمد بن علي العلوي.

(٣) المؤيد الهاروني.

(٤) يحيى بن منصور من أعلام آل الوزير، وانظر ترجمته في كتابنا (هجر العلم ومعاقله في اليمن) في هجرة (سُمْر) ج٢/ ٩٤٩.

وكذا ابن زيدٍ[1] في المَحَجَّةِ نَصُّه ... رأسُ التشيع قدوةُ المسترشدِ

وإمام[2] بغداد تَودَّدَ أَنَّه ... لَم يَعرِف التَّدقيقَ أيُّ تَودُّدِ

وابنُ الخطيبِ[3] وحُجَّةِ الإسلام[4] قَدْ ... خمَدا ونارُ ذَكَاهُما لمْ تُخْمَدِ

تَابَا[5] ولكِنْ بَعْدَ أن سَلاَّ عَلَى الـ ... إسلام سيفاً ما أراهُ بمُغْمَدِ

وبذا اكتفى آلُ الرسولِ ومن ثوى ... عندَ الحجونِ وفي بقيع الغرْقدِ

وكَذَا الصَّحابَةُ والَّذينَ يَلُونَهُم ... سلْ كُلّ تاريخ بذاكَ ومُسندِ

وكذلِكَ الفُقَهَاءُ قَالُوا وامتَحِن ... قَوْلي وسَلْ كُتُبَ التَّراجِم وانْقُدِ

ما كُنتُ بِدعاً في الَّذي قَدْ قُلتُهُ ... يا لائمي فَدَع الغوايَةَ تَرشُدِ

وإذا أَبيتَ وكُنتَ لاَ تَدْري فَقُمْ ... عَنْ مَجلِسِ العُلَمَا وقِفْ بالمِرْبَد

فَلأَجْهَرَنَّ بِما عَلِمتُ فإنْ أَعِشْ ... أَنْصَح وإنْ أَقضي فَغَيرُ مُخلَّدِ

هذا وما اخترت العتيق لحيرتي ... في الغَامِضاتِ، ولا لفرطِ تَبلُّدِ

فأَنا الَّذي أفنَيتُ شَرخَ شَبِيبَتي ... في بَحثِ كُلِّ مُحقِّق ومُجوِّدِ

والافتخارُ مَذَمَّةٌ مِنِّي فَسَل ... عَنِّي المشايِخَ فالمَشايِخُ شُهَّدِي

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِن ناقِصٍ ... فافْهَم فتِلك كِنايةٌ عَنْ سُؤددي

وإذا شَكَكتَ بأَنَّ تِلك فَضِيلَةٌ ... فاسْتَقرِ وَيْحَكَ وَصفَ كُلِّ مُحَسَّدِ

---

(١) القاضي عبد الله بن زيد العنسي المتوفى سنة ٦٦٧.

(٢) أبو القاسم البلخي.

(٣) الإمام الرازي.

(٤) الإمام الغزالي.

(٥) تابا رحمهما الله لرجوعهما إلى عقيدة السلف الصالح في وجوب الإيمان بكل ما ورد في كتاب الله وصحيح السنة من الأسماء والصفات وإجرائها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها. وقد أشار إلى ذلك الإمام محمد ابن إبراهيم الوزير رحمه الله نفسه في كتابه «العواصم والقواصم» ٢/ ١٠١، فقال: «ولكن بركات العلم أدركتهما، فإننا نرجو صحة ما روي من توبتهما، فقد صرح الغزالي في «المنقذ من الضلال» برجوعه عن الخوض في علم الكلام إلى مثل كلام أهل التصوف في الإقبال على الله تعالىٰ بالكلية، وأما الرازي فصرح في وصيّته بالرجوع عن جميع ما أودعه مصنفاته إلا ما نطق به القرآن والسنة المجمع على صحتها، وأنه يدين الله بما دانه به رسوله ﷺ».

فَلِحُسَّدِي ما في الضَّمائِرِ مِنهُمُ أَبَداً ولِي ما هُمْ عليهِ حُسَّدِي

ومع هذا، فقد انتقده شيخُه علي بن محمد بن أبي القاسم أيضاً على ما ورد في هذه القصيدة متحاملاً عليه، ومشنِّعاً به، فانبرى له أخوه العلامة الهادي بن إبراهيم الوزير مدافعاً ومحتملاً ومتأوّلاً لأخيه، ومصححاً أوهامه وظنونه في أخيه، وسمى رده (الجواب الناطق بالحق اليقين الشافي لصدور المتقين)، وقال بعدَ الخطبة: «وبعد، فإني لما وقفتُ على ما ذكره السيدُ الإمام العلاَّمة جمالُ الإسلام، رباني العترة الكرام، وسلالة الأئمة الأعلام عليّ بن محمَّد بن أبي القاسم، أبقاه الله غُرَّة شادِخةً في الأنام، وذروة باذِخةً على مرور الأيام في جوابه على تلميذه وولدِه الصِّنو محمد بن إبراهيم (الوزير) في نقضه لما انتزعه من قصيدته التي أشار فيها إلى عقيدته، وَجدتُه ـ أيّده الله ـ قد نسب إلى محمد في بعض ما ذكر ما لم يَقُلْهُ، وفَهِمَ من أبياته ما لم يقصده، وقد أطلق المحقّقون من الأصوليين أن الفهم شرطُ التكليف، وإليه ذهب بعضُ القائلين بجواز التكليف بالمستحيل، وقد نصَّ على ذلك ابن الحاجب في «منتهى السول»، فكيف لا يشترط ذلك في جواز كمال التكليف، ومن حق الجواب أن يكون لِما وَرد عليه مطابقاً، ولما سيق من أجله موافقاً، وأن لا يؤاخذ بمفهوم الخطاب، ولا يقطع بوهم يُخالِفُ الصواب، فإن من حق الناقض لكلام غيره أن يفهمه أولاً، ويعرف ما قصد به ثانياً، ويتحقق معنى مقالته، ويتبين فحوى عبارته، فأما لو جمعَ لخصمه بَينَ عدم الفهم لقصده، والمؤاخذة له بظاهر قوله، كان كمن رمى فأشوى، وخَبَطَ خَبْط عشوا. ثم إن نَسَب إليه قولاً لم يعرفه، وحمَّله ذنباً لم يقترفه، كان ذلك زيادةً في الإقصا، وخلافاً لما به الله تعالىٰ وصَّى، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، إلى أمثالها من الآيات.

وكانت قصيدة محمد قد اشتملت على أشياء أجبتها، وكلامات نقضتها بكلام جمْلي[1]؛ لأن الشعر لا يحتمل أكثر من ذلك. ولما عدل السيد أيّده الله إلى نقضها بكلامه، وأفاض عليها سَجْلاً من علمه، وكان في شيء من ذلك ما ذكرته، رأيت أن أذكر ما ذكره السيد العلاَّمة جمال الدين من الأبيات وأعقبها بما نقضها به أيده الله من الإشارات، ثم أذكر من كلام محمد ما يشهد له بالنَّزاهة عن القول الباطل، وأرسم من الوساطة بالحق ما يميز بين الحالي والعاطل، وأحمل كلام السيد جمال الدين أيَّده الله على السَّلامة في جميع أحواله وأنظم ما صدر منه في سلك الفوائد المنتزعة من علومه وأقواله، غير أن الأوهام قد تقع، وماء اليقين لصداء النفوس ينقع، والله الهادي إلى الصواب، والموفق لإصابة الحق في المبتدأ والجواب».

ومن أمثلة اعتراضات علي بن محمد بن أبي القاسم على الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ما رواه الهادي بن إبراهيم بقوله: «قال السيد جمال الدين: ثم إنه قال ـ يعني محمداً ـ هو على دين أهل البيت، وأهل البيت ينزهون الله تعالىٰ من شُبه المحدثات، ومن قبائح العباد، ومن إخلاف الوعيد، ويرون أن من خالفهم في هذه المسائل ضال مخطىء، ثم اختلفوا في كفره؛ فأكثرهم كَفَّره، ومنهم من توقف في كفره، وقطع بخطئه، فإذا كان هذا اعتقادَهم، وصاحبُ هذا الشعر يزعم أنه يُوافقهم، فكيف يُقدم روايةَ هؤلاء الذين هم فسّاق تأويل، أو كفار تأويل على رواية أهل التوحيد والعدل، ولم يقل أحد من هذه الأمة بهذا، والمخالف لنا منهم يقول: إنهم أهلُ الحق، ونحن على الباطل، فلذلك قدم روايتهم. واعلم أنه لا بد من أحد أمرين: إما أن تُرَد روايةُ هؤلاء المبتدعين القائلين بالجبر والتشبيه عند معارضة أهل التوحيد، وإما أن نقول: بأن الحق معهم، والنافي للتشبيه والجبر هو المبتدع».

---

(١) سيأتي جواب الهادي في قصيدته عقب هذا.

الجواب: أن هذه الجملة التي أوردها السيد جمال الدين مفتقرة إلى إقامة البرهان، وإلا كانت دعوى بغير بيان، لأنه نسب إلى محمدٍ جميع أقاويل الجبرية، وعزا إليه القول بمذاهبهم الفرية، وعدد منها ما أعتقد براءة محمد منه جملة وتفصيلاً وتحقيقاً وتأويلاً، فحال السيد في هذه المقالات التي ذكرها وإلى محمد نسبها، إما أن يكون علمها من محمد علماً يقيناً، أو يكون وهمها فيها ظناً وتخميناً، فإن كان الأول أظهر ما عنده في ذلك حتى يعرف الصحيح من السقيم، ويتضح المعوج من المستقيم.

فأمّا مجرد البهت الصراح، فلا يليق بذوي الصلاح.

وقول السيد: وصاحب هذا الشعر يزعم أنه يُوافقهم، فكيف يقدم رواية فساق التأويل وكفار التأويل على رواية أهل التوحيد والعدل؟ قد تقدم الكلام في جواز رواية فاسق التأويل وكافره بما لا فائدة في إعادته، وأما أن محمداً يقدمها على رواية أهل التوحيد والعدل، فليس الأمر كما ذكره السيد جمال الدين، بل ما من مسألة أخذ بها محمد في الفروع إلاَّ ولها قائل من أهل البيت عليهم السلام، وجملتها ـ فيما علمت ـ ست مسائل:

أولها: التوجه بعد التكبير، قال به المؤيد في جماعة من أهل البيت، وفيهم يحيى بن حمزة.

وثانيهما: تربيع التكبير في أول الأذان، قال به طائفة من أئمة العترة، وهم زيد بن علي، والنفس الزكية، والباقر، والصادق في رواية، وأحمد بن عيسى، والناصر الكبير، والمؤيّد بالله، ويحيى بن حمزة.

وثالثهما: الإسرار ببسم الله الرحمٰن الرحيم في الجهريات[1]،

---

(١) انظر ما قاله الإمام محمد بن إبراهيم الوزير في هذا الموضوع في كتابه=

فعند الناصر والمؤيد بالله أن الجهر والمخافتة هيئة لا تفسد الصلاة، وقال زيد بن علي وأبو عبد الله الداعي: إن الجهر سنة يوجب تركه سجود السَّهو، وبه قال المنصور من ترك الجهر في الصلاة في القراءة المجهور بها، قال: أكثر ما يجب عندنا سجود السهو. قال المؤيد بالله: يجب الجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم في الصلاة الجهرية، فإن ترك الجهر لم تبطل صلاته.

ورابعها: التشهد المروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم وهو «التحيات لله والصلوات الطيبات» إلخ. وهي رواية «المنتخب»، وبه قال المؤيد بالله وغيره من أهل البيت عليهم السلام، وقال القاسم والمؤيد بالله: أي تشهدٍ يتشهد به المصلي مما ورد به الأثر، فهو جائز، وهي تشهدات أربعة كلها مأثورة.

وخامسها: القنوت بعد القراءة وقبل الركوع، وبهذا قال زيد ابن علي، وأحمد بن عيسى والباقر وغيرهم، وهو اختيار الإمام يحيى ابن حمزة.

وسادسها: وضع اليد على اليد فوق السُّرَّة، ومذهب الشَّافعي على الصَّدر.

فهذه جملة المسائل التي ذكر أن محمداً خالف بها إجماع أهل البيت عليهم السلام، وأنه قدَّم فيها رواية أهل التشبيه والجَبر على رواية أهل التوحيد والعدل، وما من مسألة من هذه المسائل إلاَّ وقد قال بها من ذكرناه من عيون أئمة الزيدية والعترة النبوية.

وأما غيرها من مسائل الاعتقاد، فما علمت أن محمداً خالف فيها مذهب الزيدية وأئمة العترة النبوية».

= «العواصم والقواصم» ٣/ ٢١، فقد قال: إني أجهر بالبسملة على مذهب زيد ابن علي والهادي عليهما السلام وغيرهما من العترة الكرام، لأني أُسْمِعُ نفسي وأسمع مَنْ بِجَنْبي، وقد قال زيد بن علي: من أسمع أُذُنَيْه فلم يخافت.

كما أجاب على أخيه محمد بقصيدة مماثلة لقصيدته في الوزن والروي أثنى فيها عليه، وحثّه على الرجوع إلى المذهب الزيدي والتمسّك به بحذافيره، وهذا نصّها:

عَجِلَتْ عَواذِلُه ولَمْ تَتَأيَّدِ ... وجَنَتْ عَلَيْهِ جِنايَةَ المُتَعَمِّدِ
ما سُرعَةُ العَذْلِ المُعوَّج نهجُه ... مِنْ سُنَّةِ العَدْلِ القَويمُ الموردِ
شيآن ما أعيا الأنام سواهما ... لوم البري وتهمة المتودّد
وأَخُو الهُدى مَسدودةٌ أَسماعُه ... لا يَرعَوي لِمَقام كُلّ مسدَّد
سَدِّدْ كلامك في إصابة رَأْيه ... أَو لا يقع في مَسمَع مُتَبدِّد
يا عَاذِلي في حُبِّ آل مُحمَّدٍ ... دَعْ ما تَقُول فأَنتَ غير محمَّد
لو كُنتَ تعذلُ في محبَّة غيرهم ... لعَلِمْتَ أنَّك بالنَّصحية مُرشِدي
أأحبهم وأُحبُّ غيرَ طريقِهم ... هَذَا المُحالُ من المَقالِ الأَبعد
مَنْ مالَ عنهم لم يكُن منهُم، وسَلْ ... أَهلَ المعارف والطَّريق الأَرشد
أَنا مِنهُم في فِعلهم ومَقَالهم ... يا شَاهِد اللَّهِ المُهَيمِين فاشهَدِ
حُبّي لهُم فرضٌ وحُبّي جَدّهم ... مَجدٌ وصَلْتُ فريضتي بتهجُّد
لا رَيبَ في حُبِّ النَّبيِّ لِمُسلم ... إذْ كانَ ذلكَ أصلَ دينِ محمَّد
فاخصص بحبك آله متقرّباً ... بهمُ إليه وحبهم فتزود
لم يسأل الرحمٰن إلاَّ ودَّهم ... أجراً على الإبلاغ منه لأحمد
ما ذَاك إلاّ أنَّ حُبَّ محمَّدٍ ... شرعٌ لهُ في النَّاسك المُتَعَبِّد
جمَعَ الطَّوائِفَ حُبُّه وتَفَرَّقُوا ... في حُبِّ عِترته بغيرِ تردُّد
فاجْعَل وِدَادَك حُبَّ ما افترقوا تُصِب ... نَهجاً مُعَبَّدةً لِخير مُعبَّدِ
ومُحمَّد وافى إليَّ نظامُهُ ... كالدُّرِّ في عُنُقِ الغزالِ الأَغْيَدِ
رتب محاسنه بِرِقَّةِ شوقِ مَنْ ... أهداه في طَلَبِ الحديثِ المُسنَدِ
وأَفادَ عين كمالِه وجماله ... مَرهَى، ولما تكتَحِلْ بالإِثْمَدِ
مَا كانَ أحوجَ ذا الكمال إلى الَّذي ... فيه من العيب اتقاء الحُسَّدِ
لما تَنَحَّى عن محجَّة أهله ... ومشى على الطُّرقات مشي الأَضْيَدِ
أأخي وقُوّة ناظِري ومَشارِكي ... في أصله ومحله والمَولِد

أَخـوانِ إلاَّ أنَّ هـذا قـد عَـتَـا ... كِبَراً وهذا في الشباب الأمْلَدِ
وَلـد صغيرٌ في حداثة سنِّه ... وأخ كبيرٌ في العلا والسُّؤدَدِ
أربى عليَّ براعةً وبلاغةً ... وأكلَّ مِذودُه المُفوَّه مِذودي
قد زادني علماً فتلك وسيلةٌ ... للرَّاغبين فإنْ تَجِدها فازْدَدِ
وأفادني مِن علمه وبيانه ... حُسْنَ الإفادة فاستفده وأسنِدِ
أبنيَّ إن ناديتُه لِتلطُّفي ... وأخيَّ إن ناجيتُه لِتَجلُّدِ
ما لي أراك وأنتَ صفوة سادةٍ ... طابت شمائلُهم لطيب المَحْتِدِ
تمتازُ عنهم في مآخذ علمهم ... وهُمُ الذين علومُهم تُروي الصَّدي
أخذوا مباني علمهم وأصولَه ... عَنْ أهلهم من سيدٍ عن سيِّد
سند عن الهادي وعن آبائه ... لا عَنْ كلام مُسدَّدِ بن مُسَرْهَدِ[1]
سند عن الآباء والأجداد في ... أحكامهم وفنونهم والمفرد
وكذاك في التجريد والتحرير والتـ ... ـعليق والمجموع ثُم المرشد
لهم من التصنيف ألفُ مصنَّفٍ ... ما بينَ علم سابق ومجدِّد
قد قلتَ في الأبيات قولاً صادقاً ... ولقد صدقتَ وكنت غيرَ مُفنَّدِ
«هُمْ باب حطَّة والسفينةُ والهدى ... فيهم وهُمْ للظالمين بمرصَدِ
وهم الأمان لكلٍّ من تحت السما ... وجزاء أحمد وُدُّهم فتودَّد
والقوم والقرآن فاعْرِف قدرَهم ... ثقلانِ للثَّقلينِ نص محمّد
وكَفَى لهم شرَفاً ومجداً باذِخاً ... فرضُ الصَّلاة لهم بكُلِّ تَشَهُّد»
هذا مقالُك في القَصيدِ وإنَّه ... مخضُ الصواب وعِصْمة المُسترشِد
فأتِمَّ قولَك بالمصير إليهم ... في كُلِّ قولٍ ـ يا محمد ـ تهتدي
فَهُم الأمان كما ذكرت ونهجهم ... نهجُ البلوغ إلى تمام المَقْصِد
ما لي أراك تقولُ فيهم هكذا ... وبِغَيْرِ مذهبهم تدينُ وتقتدي

---

(١) مسدَّد بن مُسَرْهد: هو الإمام الحافظ الحجة أبو الحسن الأسدي البصري، أحد أعلام الحديث. حدّث عنه البخاري وأبو داود وغيرهما. مولده في حدود الخمسين ومئة، وتوفي سنة ثمانٍ وعشرين ومئتين. (سير أعلام النبلاء ١٠/٥٩١).

أو ليس هُم حُجَج الإلَه على الورى … والفلك في بحر الضَّلال المزبد
ما كانَ أحسنَ حسن فهمك ترتقي … درجات علمهم إلى المتصعَّد
حتى إذا استوريتَ زندَ علومهم … وأردتَ تزند ما بدا لَكَ فازند
بَعْدَ النهاية في العلوم ودرسها … وإحاطةِ المتوغل المتجرِّد
ولأنت فرعٌ باسق من دوحةٍ … شرُفَتْ بحيدرة الوصيِّ وأحمد
متردد بين النبوة والهدى … مِن أهله ناهيك من متردّد
فأَعِذْ ـ هداك اللّه ـ نظرةَ وامقٍ … في علمهم تلقَ الرشاد لمرشد
وتوسَّمِ العلمَ الذي في كتْبهم … تجدِ الدراية والهداية عن يد
وذكرت سنة أحمدٍ وحديثَه … يا حَبَّذا سننُ النبي محمد
أورد مسائلها وردْ في مائها … يا حَبَّذاك لِوارِد ولِمُورِدِ
لسنا نقولُ: بأن سنة أحمدٍ … متروكةٌ، وحديثُه لم يُوجَدِ
بَلْ سُنَّةُ المختارِ معمولٌ بها … وحديثُه شف النضار العسجدِ
ومقالُهم في سنة وجماعة … قول رديء ليس بالمتمخد
سَبُّوا الوصيَّ وأظهروها سنةً … لبني الدُنا من مغورين ومنجد
وكذاك سَمَّوْا حين صالح شُبَّرٌ … ابنَ التي عُرِفَت بأكل الأكبد
عامَ الجماعة واستمرُّوا هكذا … حتى تملك عصره المستنجد
أعني به عمراً فأنكر بدعةً … ونظيرُه في عدله لم يُوجَد
ونقول: في كتب الحديث محاسنٌ … مِن سنة المختار لما نقصد
لكن نُرَجِّح ما رواه أهلُنا … سفنُ النجاة وأهلُ ذاك المسجد
ونقول: مذهبُهم أصحُّ رواية … وأمتُّ في متن الحديث المسند
فَبِهِم على كُل الأكابر نبتدي … وإليهم أبداً نروح ونغتدي
وبِهَديهم في كل سمتٍ نهتدي … وبقولهم في كل أمرٍ نقتدي
وبفعلهم في كل مجد نحتذي … وبعلمهم في كُلِّ وقت نجتدي
وإذا تعارضَ عندَنا قولٌ لهم … ولغيرِهم قولٌ وإن هو واحدي
مِلْنَا إلى القولِ الذي قالوا به … لتوثقٍ في حِفْظِهم مُتَشَدِّدِ
وتصلُّبٍ في دينهم وتنزُّهٍ … وتورعٍ في كسبهم وتزهد

ولما روينا فيهم عن أحمدٍ ... حسبي به للمقتدي والمهتدي

فاليوم عِصمتنا بهم وبحبهم ... وهم الأئمةُ والأدلةُ في غد

نشروا العلومَ وأيّدوا دينَ الهدى ... علماً بهادٍ فيهم ومؤيد

ومَضَوْا على سنن الجهاد ورسمه ... ما بين مقتولٍ وبين مشرد

ومخلدٍ في حَبْسِه ومطَرَّدٍ ... عن أهله ومصلَّبٍ ومقيَّد

من في البرية يا محمد مثلهم ... في فضلهم وجهادهم والسؤدُد

وذكرتَ تصحيح الخلاف وأنهم ... قد خالفُوا آباءهم بتعمد

فصدقتَ فيما قلتَه وحكيتَه ... وقع الخلافُ وليس ذاك بمفسِدِ

إنَّ الصحابة ماج فيما بينَهم ... شرعُ الخلاف وهم صحابةُ أحمد

وكذا الأئمة بعدَهم لما تَزَلْ ... آراؤهم في العلمِ ذات تبدُّدِ

والحقُّ تصويبُ الخلاف وما ترى الـ ... إجماع إلا في نَوادر شرد

وذكرتَ أن الموت يقطع في الهدى ... تقليدَ صاحبه لكل مقلد

وحكيتَ ذلك مذهب الجمهور عن ... علمائهم بينت كالمستشهدِ

فخلاف ذلك ظاهرٌ متعارف ... في كتبنا وبكتبهم فاستورد

قد نصَّ بيضاويهم في شرحه ... تجويز تقليد الإمام المُلْحَد

وكذاكَ في «المعيار» جوزه وقد ... أفتى به حسنٌ سليلُ محمد

قالوا جميعاً للضرورة: إنه ... لم يبق مجتهد فَطُفْ وتفقد

قالوا: وإلا أي فائدة لنا ... في درس علم الشافعي وأحمد

وكذاك درس علومِ آل محمد ... كم دارس لعلومهم متفرّد؟

فإذا تبين أن تقليدَ الورى ... حق لمهديٍّ وهادٍ قد هُدِي

وأصبتَ فيما قلت من تصويب أهـ ... ـلِ العلم في فنِّ الخلاف الأمجد

فن الفروع فإنه لا بأسَ في ... سَعَةِ الخلاف به لكل مجرد

وذكرت قولك في الكلام وما لهم ... فيه من القول الغريب الموجد

فلقد ذكرت مِن العلوم أجلَّها ... قدراً وأعظمَها لكل مُوحِّد

فن به شَهِدَ الكتاب وصحة الـ ... ألباب ليس لِفَضْلِه من مجْحَدِ

راضته أفكارُ الأفاضل واغتدى ... كالدُّرِّ بين زبرجد وزمرد

ما فيه من عيب سوى أن دقّقوا   لِدفاع قولِ الفيلسوفِ المُلْحِد

لولا صناعتُهم وحسنُ كلامهم   نزعت يدُ الحربا لسان الأسود

وصدقت أن محمداً في صَحبه   لم يعرفوا تلك العبادة عن يد

مـاذا أرادَ مـحـمـدٌ منه وَجِبْـ   ـريلٌ لديه كل حينٍ في الندي؟

حمّاد عَجْرَد لم يكن في وقته   أبداً، ولا سمعوا هناك بعجرد

وابن الروندي وابن سينا أحدثا   بعدَ النبوة في الزمان الأقرد

ما كان في وقت النبي مدقّق   منهم فيحتاجُ البيان لملحد

لكن علي قد أبان بنهجه   هذي الدقائق فاستبِنْها واقصدِ

هُوَ أوّلُ المتكلمين وقولُه   قبس كنارِ القابس المستوقد

فاتبع مقالتَه فإن شيوخَنَا   أتباعُه فيها أصِبْها تُرشَد

ماذا أردتَ بانتقاصِ مشايِخ   هم أصلتوا في العلم كل مهند

لولا سيوفُ كلامهم وعلومهم   لم ينتقض تاج الغواة الجحّد

نقضوا به شُبَه الفلاسفة الأولى   دانوا بأفلاك وقول أنكد

فنريهم القمر المنير من الهدى   ويروننا وجهَ السُّها والفرقد

فهناك أمسينا بأحسن ليلةٍ   وهناك قد باتوا بليلة أنقد

وأدلة التوحيد ليسَ شعاعُها   يخفى على مَنْ لم يكن بالأرمد

ولهم مسالك في العبارة بعضُها   يُشفى به قلبُ العليل المعمد

والبعضُ منها ليس بالمرضيِّ في   قولِ الهُداة مِن النصاب الأحمد

ولنا من الماء السلاسل صفوه   والآجن المنبوذُ للمستورد

فاشرب مِن الماء الزلال ألذَّه   ودعِ الكُدورة في شواطي المورد

وشكوتَ من ألم البُغاة ولم تَجِدْ   ذا سؤددٍ إلا أصيب بحسّد

لا زلتَ يا سبطَ الكرام محسَّداً   فالناقص المسكين غير محسد

قال السيد جمال الدين: ومن مخالفة إجماعهم ترك «بسم الله الرحمٰن الرحيم» في الفاتحة، ومن مخالفة إجماعهم القولُ بالرؤية، ومن مخالفة إجماعهم تركُ «حيّ على خير العمل».

الجواب على هذه الثلاث المسائل:

أما ترك بسم الله الرحمٰن الرحيم، فلم يقل محمد بتركها، وأكثر ما سمعته يذكر في البسملة الإسرار بها، قال: وهو يحتاط في ذلك، فيجعل الإسرار بها بحيث يسمع من بجنبه، وذلك أقلّ الجهر، وقد قال زيد بن علي: ما خافت من أسمع أذنيه، فأما الترك رأساً، فليس من القبيل الذي نسبه إلى محمد، إذ لم يقل به محمد. ومثله أبقاه الله لا يعجل بنسبة شيء إلى أحد إلاَّ بعد معرفته وتحقيقه وإلاَّ كان خلافَ الصواب، وهو لا يليقُ بمثله، وإنما يليق بالعالم المتقي التثبت في الرواية، وحسن الرد من بعد الهداية، ومسألة الجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم غير مسألة الترك، ولكل واحدة منهما كلام لا يحتمِلُهُ الموضع.

وأما مسألة مخالفة إجماع العترة بالقول بالرؤية، فهذا شيء لم أعرفه، ولم أسمعه من محمد لا في قول ولا في كتاب[1]، وأنا أنزهه عن هذه المقالة ومعي خطه بأن اعتقاده في العقائد الكلاميةِ والمسائل الإلهية اعتقاد أهل البيت عليهم السلام، وأنه غيرُ مخالف في واحدة من هذه المسائل، ويدلّ على ذلك من شعره قوله من جملة أبياته:

هذي الفروع وفي العقيدة مذهبي ... ما لا يخالِفُ فيه كلُّ موحد
ديني كأهلِ البيت ديناً قيّماً ... متنزهاً عن كل معتقد ردي

وكيف يقول بالرؤية بعد هذه المقالة، أو يضاف إليه ذلك، ومذهبُ أهل البيت واعتقادهم أن الرؤية على الله تعالىٰ غير جائزة معقولة ولا غير معقولة، وكيف يصرح محمد ها هنا بأنه يتنزه في

(١) بل قاله حين اتبع مذهب أهل السنة والجماعة، وقال به في كتابه «العواصم والقواصم» ٥/٥ ـ ٢٣٨، حيث أورد الآيات والأحاديث والأثار الدالة على القول برؤية الله عز وجل يوم القيامة، وكان رحمه الله ينفي هذا القول، حيث أفرد فيه رسالة مستقلة عنوانها: «تحرير الكلام في مسألة الرؤية وما دار بين المعتزلة والأشعرية».

عقيدته عن كل معتقد ردي؟ ويُضاف إليه اعتقاد مخالفة العترة بالقول بالرؤية، وهي هذه المصادمة بنفسها.

وأما مخالفة إجماعهم بترك (حي على خير العمل)، فهذا من الطراز الأول، وهو التقوّل على محمد ما لم يقله، والنسبة إليه ما لم يصدر عنه ولم يكن منه، وقد سمعتُهُ يؤذنُ غير مرة، ويذكر (حي على خير العمل)، وأكثر ما يصنعه في الأذان التربيع في أوّله كما هو مذهب طائفة من العترة وساداتهم، وذكر محمد أنه وجد في «سنن البيهقي» وهي السنن الكبيرة رواية حي على خير العمل أثبتها البيهقي، وصححها، وذكر هذا في معرض التصحيح للأذان بـ (حي على خير العمل) وهو على ذلك قبل أن يقف على «سنن البيهقي»، فكيف نَسب إليه السيد جمال الدين ما لم يصح عنه، وأكثر ما يتمسك به السيد في إضافة هذه الأقاويل رواية أحادية لم تبلغ حدّ التواتر، فيحصل له طريق موصلة إلى العلم. وقد روى القاضي محمد بن عبد الله بن أبي النجم في كتاب «الفصول» ما لفظه: وعن القاسم عليه السلام أنه قال: الأذان بغير (حي على خير العمل)، معناه جائز، وهذه رواية شاذّة لم تسمع عن غيره، وهي رواية غريبة، ولو صدر مثل هذه الرواية عن غيره، لأنكرناها ولكن رواية العدل مقبولة.

وقد ظل الخلاف بين الرجلين محتدماً حتى كتب الهادي ابن إبراهيم الوزير إلى أخيه محمد رسالة[1] ينصحه فيها بالتوقف عن الاسترسال مع شيخه في الجدال والمماحكة وتبادل النقد المؤلم، فأجاب عليه أخوه بهذه الرسالة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وبه الثقة، من ولده محمد بن إبراهيم المجبول طبعه على حب النصيحة، المجروح قلبه من المقالة القبيحة،

---

(١) لم أجد رسالة الهادي في المراجع التي أتيح لي الاطلاع عليها حول المترجم له.

الراجي من الله تعالىٰ أن يعصمه من الطيش في الأمور، ويجعله من الأبرار الممنوحين سلامة الصدور حتى يعاشر الناس بقلب سليم، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. إلى والده وسيده وخلفه من سلفه جمال الدين الهادي بن إبراهيم والدي وحبيبي وتالدي وطريفي، أمتعني الله به وأبقاه، ورضي عنه وأرضاه، وسلام عليه ورحمة الله وبركاته، سلام متشوق إليه، متحنن عليه، متألم لفراقه، منشد لمن فارقه من رفاقه:

إذا بلغتم سالمين فبلغوا تحية من قد ظن ألا يرى نجداً

ويرفعها ولده حامداً لله على جزيل نعمه، سائلاً له المزيد من فضله وكرمه بعد مداواة الصدر الجريح بمراهم وعظه، وأسامت الطرف القريح في حدائق لفظه، وما أشار إليه من ترك السباب، وحضّ عليه من الصبر والاحتساب، فنعم ما أشار إليه، وحبّذا ما حثّ عليه، ذلك أمرٌ وصّى الله به، حيث قال في كتابه الكريم ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. وقد مدح الله سبحانه الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وبشّر الصابرين وأحبَّ المحسنين، ولو لم ينزل من السماء إلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، لكفى به قارعاً للخاشعين عن مجازاة الظالمين ومماراة الجاهلين، وفي الحديث النبوي على صاحبه الصّلاة والسّلام من التوجيه بهذه الخليقة الجليلة والفضيلة النبيلة ما يكلّ ألسنة الحسبة، ويفل أقلام الكتبة. فجدير أن تطول بها النواصي إذ كانت من ذوائب الخير والتواصي، كما قال العلامة رحمه الله: «ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يقول في توجهه للصلاة: «اللّهمّ اهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت، واصرف عني سيّئها، فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت»، كما ثبت ذلك عن عليّ عليه السلام. فملازمة هذا الدعاء عند كل توجه إلى الله، ومع كل قيام إلى الصلاة

إشعار من صاحب الشريعة عليه السلام بتعظيم شعائر هذه الخليقة وإعلان منه ﷺ برفع منار هذه الطريقة، جعلنا الله من المتحلين بفرائدها الفاخرة، المتسلين عند الغيظ بذكر فوائدها العائدة في الدنيا والآخرة.

هذا وإنه لما وصلني العلمُ بأن السيد جمال الدين علي ابن محمد بن أبي القاسم أيّده الله تعرّض لي بما لا يليق بمثله مع وده وعلمه وفضله، حتى نسبني إلى مخالفة أهل البيت الكرام عليهم أفضل الصّلاة والسّلام في الأصول والفروع، والمعقول والمسموع بغير حياءٍ من الله ولا مراقبة ولا مبالاة، عظم موقع هذا في صدري، وكبر محله على صبري حين تجاسر، وهو الأفضل الأعلم على الرحم بما لا يدري والهجوم بما لا يعلم. وعهدي به متورع متوقر غير... (١).

ولم أعهده إمَّعةً غوياً ... يظن الحج يلزم من جمادي
ويحسب أنه يحسو سويقاً ... إذا ما مات بالماء الرماد
ويجني كفُّه عِنباً وتمراً ... إذا غــــــــــــرس... (١)

فحسبت أنه قد صار ممن لا ينتفع به، وقلت: «آخر الدواء الكي»:

ولا خير في علمٍ إذا لم يكن له ... بوادرُ تَحمي صفوَه أن تكدّرا

فكتبت كتابي الصادر إلى سيدي أيّده الله على حين امتلأ من الغيظ والحنق، وانزعاج من البهتان وقلق (١).

ثم بعد ذلك راجعني ذكر الموت الذي تموت بذكره الأحقاد ويبرد بالتفكر فيه الأكباد، فعن قريب، وقد أنسانا هول المطلع عن هذه الترهات، وألهانا عظيم الفزع عن هذه المقالات، وبليت الأجساد

(١) لم أتمكن من قراءة ما فيه الفراغ فأبقيته كما هو.

في القبور، وانسلّت الأحقاد من الصدور، وتذكرت أبياتاً كنت قلتها في مثل ذلك، وهي هذه:

أعاذل دعني أري مهجتي ... أزوف الرحيل ولُبْس الكفن
وأدفن نفسي قبل الممات ... في البيت أو في كهوف القِنَن
فإن كنتَ مقتدياً بالحسين ... فلي قدوة بأخيه الحسن

ثم انقطع الكتاب المذكور.

بين ابن الوزير والمهدي:

حينما تُوفِّي الإمام الناصر صلاحُ الدين محمد بن علي بن محمد في ذي القعدة سنة (٧٩٣)، سارع ابنُهُ الإمام المنصور علي ابن صلاح، فدعا إلى نفسه بالإمامة، ودعا في ذات الوقت إلى نفسه الإمام المهدي أحمد بن يحيى المُرتضى، فانحاز الإمام محمدُ بنُ إبراهيم الوزير، وأخوه العلامة الهادي بن إبراهيم وغيرهما من علماء صَعْدَة إلى جانب الإمام علي بن صلاح؛ مما أضعف جانبَ الإمام المهدي الذي خسر المعركة في حلبة التنافس على الإمامة مع معارضه علي ابن صلاح، وانتهى به الأمرُ إلى أن اعتُقِل في معبر وسُجِن في صنعاء.

ولما فرَّ المهدي مِن السجن، ذهب إلى ثُلا، وأقام هناك فترةً طويلة، فرحل إليه الإمامُ محمد بن إبراهيم الوزير، ووقف معه مدةً يُسائله ويُراجعه ويُباحثه كما ذكر أحمد بن عبد الله الوزير في (تاريخ آل الوزير) ومن جملة ذلك أنَّه وجه إليه خمسة وعشرين سؤالاً في مسألة الإمامة، وأن المهدي لم يجب عليها، فكتب إليه محمد ابن إبراهيم الوزير هذه القصيدة:

أَعَالِمَنا هَلْ للسُّؤَالِ جَوَابُ ... وَهَلْ يَرْوِيَ الظمآنُ منك عُبابُ[1]

(١) في نسخة: وهل ينهل العطشان منك عباب؟.

وهَلْ يكشِفُ الظَّلماءَ منكَ بصائرٌ　　　يَدُلُّ عليها سُنَّةٌ وكِتابُ
وهَلْ حَسَنٌ مِنِّي إذا كنتُ سائلاً　　　أَم البحثُ يا بحرَ العُلُومِ يُعابُ
وهَلْ جاءَ في شرعِ التَّناصُف أنَّه　　　يُكَدِّرُ من صافي الوِداد شرابُ
وهَلْ قَدْ سعى بيني وبينَكَ جاهلٌ　　　ظَنينٌ يُريكَ الماءَ وهو سرابُ
وهَلْ غَرَّكُم فيَّ الخُمُولُ فإنَّما　　　أنا السَّيفُ خُبراً والخُمول قِرابُ
وهَلْ يُزْدَرى بالسَّيفِ مِنْ أَجلِ غِمدِهِ　　　ويُحْقَرُ من وهنِ المَحَلِّ عُقابُ
وهَلْ لكثيرِ الشَّوقِ والوَجْدِ راحِمٌ　　　وهَلْ للمساكِين الضِّعاف صِحابُ
وهَلْ عائدٌ في الدَّهر وُدُّكَ عامراً　　　فها هُو ذا يابْن الكِرام خَرابُ
وهَلْ مُشمِرٌ حَوْكي مُلاَّ رَقائِقٍ　　　تهُزُّ صِلابَ الصَّخرِ وهِي صلابُ
وهَلْ عاطفٌ للوِدِّ منكَ تلطُّفٌ　　　وهَلْ قاطِعٌ للهَجْرِ منكَ عتابُ
وهَلْ لمَجْلاتِي إذا لم تجُلَّها　　　رُجُوعٌ إلى مَنْ خَطَّها وإيابُ
وهَلْ لسلامِي مِنكَ رَدٌّ فإنَّه　　　يخُصُّكَ مِنِّي ما استهلَّ سَحابُ

ويظهر أنه لم يجب عليه؛ لأنه كان في نفسه عليه ضغينة منذ أن وقف مع أخيه الهادي إلى جانب الإمام علي بن صلاح ضده، فلم تمح السنون ما في نفسه[1].

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى　　　وتبقى حزازات النفوس كما هيا

ولكن هذا لم يكن هو السبب الوحيد في إثارة الخصومة بينهما في اعتقادي، وإلا لأشرك الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى معه أخاه الهادي بن إبراهيم الوزير؛ لأنه كان مؤيداً للإمام علي بن صلاح، وإنما السبب دعوةُ الإمام ابن الوزير إلى نبذ التقليد والعمل بالكتاب والسنة فقط.

---

(١) انتقل ما في نفس الإمام المهدي من كره للإمام محمد بن إبراهيم الوزير إلى حفيده الإمام شرف الدين الذي شنع على ابن الوزير في شرح مقدمة كتابه «الأثمار»، ونسب إليه أموراً لا يقبلها العقل ولا منطق وسيأتي ذكرها في خاتمة هذا البحث إن شاء الله.

ولهذا فإنه لما صنف كتابه «قبول البشرى في تيسير اليُسرى» وضمَّنه ما يجوز من الرُّخص وما لا يجوز، وما يكره وما يستحب، وذكر أقوال أهل العلم في ذلك، رد عليه الإمام المهدي بكتابه «القمر النوار في الرد على المرخصين في الملاهي والمزمار»، وتطور بينهما الخلاف إلى ما هو أبعد من ذلك، وقال محمد بن إبراهيم الوزير: «قد كنت قلت أبياتاً في الحث على استنباط الأدلة العقلية في التوحيد من كتاب الله تعالىٰ، وذكرت أن ذلك يعفي عن الكلام، فعارضني بعض من يدعي علم الكلام العصريين (الإمام أحمد بن يحيى المرتضى)، وكاد جوابه يُلَبِّس على كثير من الضعفاء، فنقضت جوابه نقضاً شافياً كشف الغطاء عن بدعته، وأجمعت كلمة المعاصرين من المتكلمين على إنكار كلامه إلا من لا ينظر، وقد رأيت أن أورد من ذلك ما أرجو أن ينفع الله تعالىٰ به، فقلت:

أصول ديني كتابُ اللَّهِ لا العَرَضُ ... ولَيْسَ لي في أصولِ غيره غَرَضُ

لولاه بالنَّصِّ ما كان الرسول دَرَى ... مَا هُو الكتابُ ولا الإيمانُ يفترضُ.

ما احتجَّ قطُّ نبيٌّ في الكتاب بما ... قالوا كأن لم يَكُنْ في وقتهم عَرَضُ

جاء الهدى والشِّفا فيه وموعظةٌ ... ورحمةٌ قول ربٌّ ليس ينتقض

وفي توهُّمِهم أنَّ الخليل به اسـ ... ـتَدلَّ أَفْحَشُ وهم ليس يُرتَحِضُ

ما الفرق في ذاك بَيْنَ النَّيِّرين وما ... بَين الأُفولَين للنُّظار لو مَحَضُوا

وما لهُم عن دليلِ المُعجزات أما ... في الشَّمس عن زُحَلٍ للمُهتدي عِوَض؟

دَليلُ موسى لأهلِ السِّحر عرَّفهم ... في سَاعَةٍ فغَنَوا عن عِلمكم ورَضُوا

وما يُحَقِّق ما أوجبتم سَنَةً ... إلاَّ ذَكيٌّ حريصٌ ليسَ يُغْتَمَضُ

وذاكَ أوضحُ ما حَجَّ الكليم به ... فِرعونَ في الشُّعرَا والكفر يَنخفِضُ

وعلَّل اللَّهُ أعلام الأنام بأهـ ... ـلِ الكهف بالعلم تعليلاً هو الغرضُ

كما تقرّر في الكشّاف وهو من الـ ... ـخصومِ لكن أمر الحق مُنْتَهِض

تجري على ألسنِ الأعداء متضحاً ... عساه يشفي الذي في قلبه مرض

فما لهُم إن جَرى ذِكرُ الكلام سَعَوا ... وإنْ ذَكَرنا كلامَ اللَّهِ يَنقَبِضوا

ولَيتَهُم إذ دَرَوْا عِلم الكلام دَرَوْا | أنَّ الشِّفاء الذي ظنُّوا به مرضُ

قالوا السُّكون وجودٌ ثابتٌ عَرَضٌ | وقَطْعُهم فيه بالتَّشكِيكِ منتقضُ

لـعـلَّ وِجـدانَـه مـن ضـده عَـدَمٌ | كَالجَهْلِ والموتِ للأحياء يُعترَض

قالوا: اقترانُ كِلا الكونَين لُبْثُهما | ولا دَليلَ لهم في ذاك يَنتهضُ

وكيف يتَّحدُ الضِّدَّان مِنْ جدلٍ | والأوَّليُّ ببحثٍ ليسَ ينقرض

بلِ السُّكون هو اللبث الذي زعموا | والاحتراك بذاك اللُّبث يُرْتَفَضُ

إذ السُّكون بسيطٌ يستحيلُ له | فضل[1]، ومعناه بالتقييد يُنْتَقَضُ

ألا تـرى أنَّـه فـي طـول مُـدَّتـه | فَردٌ على الفَرْضِ منا أنَّه عَرَضُ

دلـيـلـهُ مُـطـلَـقُ الأكـوان أنـهُـم | في حُكْمه لِضَروريّ النُّهى رَفَضوا

إذ يستحيلُ خُلُوُّ الجِسم من نَقَل | ومِنْ سكونٍ وقَولُ الحق مُفترضُ

وقولهُم فيه بالإيجاب يَلزَمُ رَفْـ | ـعَ الاختيارِ من البَاري فَيُنْتَقَضُ

وقَـيـدُهـم لُبْـثه وقـتـاً بـنـقـلَـتـه | في الاحتراكِ رَكيكٌ ليسَ يَنتَهِضُ

إنْ كانَ ذا القَيد شيئاً كان ذاكَ هُو الـ | ـتحريكَ أولم يكن شيئاً فما العَرَضُ؟

فإن يقولوا: انتفى الماضي فذا عدمٌ | ووَصْفُه بحدُوث الذّاتِ مُعْتَرَضُ

وإنْ يقولوا هُو المَجموع (فهوبنا)[2] المَوْ | جودَ مِنْ عَدَم والخُلْفُ يَنتَقِضُ

إنَّ البسائِطَ لا تَركيبَ يدخُلُها | وكُلُّ ما رُكِّبَت أفرادُه فَضَضُ

ولـو نُسَلِّـم مـا قـالـوه أنَّـهـمـا | لُبث وأَنَّ الذي قُلناه معْتَرضُ

فاللُّبثُ مِثلُ البَقا لم يُعْدَما، وبذا | يَؤُول مِنْ حَدَثِ الأكوان ما فَرضوا

إذ كُلُّ ذاك إضافاتٌ وحاصلُها | تَخَيُّلٌ لِذواتٍ لَيسَ يُمتَحَضُ

كوَصفِهم بمعانٍ[3] لا وجودَ لَهُ | معاً فما وصف حرف بالذي فرضوا

وبعض محترك الأجسام أثقل من | بعض، وفي ذاك بحث ليس يغتمض

سريعها لابث وقتاً بكل جها | ت الكون حتى لموع البرق إذ يفض

وضده لابث ضعف السريع بلا | ريب ـ على زعمهم ـ والحق مفترض

---

(١) في نسخة: وصل.

(٢) في نسخة: ركبوا.

(٣) في نسخة: كوصفهم لمقالٍ؛ وفي نسخة أخرى: كوصفهم لكلامٍ.

فكان في وجهه وقتين محتركاً   وجمع ذا باضطرار العقل ينتقض
ولو تحلل في ذاك السكون لما   خفي إذ كان إضعاف الذي يفض
وكان عن قصدنا فيما يكون لنا   لا سيما في الذي ينهى ويفترض
فانفذ حدودهم الأكوان إن بها   مزيفاً باطلاً بالنقد يرتفض
فإن قضينا ببطلان الحدود فذا   وإن نقل باعتباراتٍ فذا الغرض
ويشهد الظّلُ والنجمُ البطِيء لقو   ل الاعتبار إذا خرَّ الذي يَفِض
صح السكونُ طويلاً فيهما لغةً   والاحتراكُ لِمحض العقلِ مُمتحض
والحق أن السكونَ والبقاء رديـ   فاالّلبث والكونُ في المعنى هو الغرض
وقولنا الكون ذاتٌ غير متضح   لأنه باعتبار الوقت معترض
وهو الوجود يسمى باعتبارهما   اسماً، وما كل لفظٍ تحته غَرَض
ولا دليل عليه وهو محتمل   والاحتمال بميل الظِّل ينتهض
ونُقلَةُ الجسمِ والتحريك قطع مسا   فة تَرادفها ما ليس يعترض
فالكون في حالة التحريك يُطلق لا   يقال: لبثٌ له فاللبثُ ينتقض
إذ فيه معنى السكون وهو محترك   كما تقدم في المُبطي وما يفض
والنجمُ والنبتُ والظل الجميع سكو   نهن كالطفل بالبرهان مُعترض
هذا المطابق والموضوع في لغةٍ   وأوهموا فيه بالملزوم فاعترضوا
فلا تظنَّ اختلاف اللفظ يلتزم الـ   أشياء، ولا كل معنى تحته غرض
فالجهلُ لفظٌ له معنى، وليس له   ذات، كذلك موت الحيِّ لا المرض
والعَدمُ المحضُ معقول تجدُّدُه   لفظاً ومعنى ولا وصف ولا غرض
فلا ترُدَّ نصوص الذكر معتمداً   على خيالٍ لأذكى منك ينتقضُ
وربما جاء أذكى منكما فغدا الـ   إسلام في كل يوم وهو يُرتفض
فقف على الجمل المعلوم صحتُها   ولا تجاوز وقولُ النصح مفترض
فَرْض على مِثل هذا النَّقد قولهم   تَجِدهُ مثْل شرَابٍ شُربُه حَرَض
هذا وإني على رَدِّي لِقَولِهِم   أحنوا عليهم وإنْ عابُوا وإن بَغَضُوا
إخوانُنا وعلى الدِّين الحنيف وإن   أخطَوْا فما الشَّمُّ يَوْمَ الرِّيح يَنْتَفِضُ
لهُم سوابِقُ من عِلمٍ ومِن عَمَلٍ   فكَم أصحُّوا؟ وكم صحُّوا وإن مَرِضوا

ولي ذنوبٌ إذا قيسَتْ بذَنبِهِمُ ... رُدَّت عليَّ ردوداً ليسَ تُنتقض

فاللَّهُ يُوسِعُني فضلاً ويوسِعُهم ... فمقَصدُ الكلِّ أنَّ الحَقَّ يُمتحَضُ[1]

وقد أجاب الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى معترضاً على ما قال بقوله:

يا ذَا الذي لأُصول الدين يعترضُ ... وقال: ليسَ له في علمه غَرَضُ

لو كُنتَ تَعْلَمُهُ ما قُلتَ معترضاً ... «أُصولَ ديني كتابُ اللّه لا العَرَضُ»

هذي مقالةُ من زلَّت به قَدَمٌ ... عن منهج الحقِّ أو في قلبه مرضُ

كيفَ السَّبيلُ إلى عرفان خالقنا ... قلت: الكتابُ، وهذا القولُ مُنتقَضُ

إذ لا يُصدِّقهُ إلا وحِكْمَةُ مَن ... أنشاهُ برهانُها للعَقْل يَنتهضُ

والدَّور في ذاك لا يخفى على أحدٍ ... بِئْسَ الدَّليلُ الذي بالدَّور يُرتفض

وكونُه مُعجِزاً لا يُستدلُّ به ... إلاَّ بمحضِ التعاليل التي مَحضوا

وفِكرةُ القلب في القُرآنِ مُغنيةٌ ... عن القراءة ما في لفظه غُمُضُ

وذاكَ يُمكنُ في الوقت اليسير فما ... قالُوا كقَولك طولَ الوقت مُعترض

وما توهَّمت أن الأنبياء لِما ... عَليه تأويلُ أهل العلمِ قد رَفَضُوا

جهالةٌ وضلالٌ إنْ أردتَ به ... ما اللّهُ في محكمِ التَّنزيلِ مُفترِضُ

عَليهم وعلينا مَنْ تأَمَّل مَضـ ... ـنُوعَاتِه فبِذاكَ الجهلِ يُرتفض

أمنكرٌ أنتَ كونَ الأنبيا وضعُوا ... عِلم الكلامِ فهذا ليس معترضُ

أم مُدَّعٍ أنَّهم لم ينظروا أبداً ... في الحادثاتِ فهذا الوهمُ مندحضُ

الأمرُ بالفكر في رفع السَّماء وسَطْـ ... ـحِ الأرضِ يشهدُ أن الحُجَّة العَرَضُ

فكيفَ أثبته الباري وتنكره ... مخَالِفٌ أنت أم للذِّكر معترِضُ

وهم إذا نظروا فالعقلُ مندفعٌ ... في خوضِ ماجُلُّ أهلِ العِلمِ قدمحضوا

---

(١) تكرم الأخ العلاّمة القاضي عبد الرحمٰن بن يحيى الأرياني، فبعث إليّ من دمشق بأصول هذه القصائد الثلاث، وهي بخط والده شيخ الشيوخ القاضي يحيى بن محمد الأرياني رحمه الله، كما أن الأخ القاضي العلامة محمد ابن أحمد الجرافي أعارني نسخته، فاستفدت منهما في ضبط هذه القصائد الثلاث.

فالكل لا يعلم الأجساد محدثة … إلا بتلك البراهين التي فرضوا
بالكون أو بدليلِ السمع حيث لمنشي … السمع أثبت في معقولنا العرض
أو غير ذلك ما قرّروه فما … لِلاحتجاج بِغَيْر الكونِ قد رَفَضُوا
أمّا سؤالك في الكونين فهوَ لهُم … قد أوردُوه وحَلُّوا عقده ورَضُوا
فخذ جَواب الذي أورَدْتَ من كُتُبٍ … قد دَوَّنُوها لأهلِ الشَّكِّ إن عَرَضُوا
فيها الشّفاءُ لِداءِ الجهلِ إن فُهِمَت … ومن مَقاصِدها لم يبق مُغْتَمَضُ
حُلْو المذاق لذي الفهم القويم وذي … الفهم السَّقيم عليه مُرَّة حَرَضُ
فازجِعْ إلى هَذْيهم تَرشُد برُشْدِهم … فَكَمْ أصحُّوا وهم صَحُّوا وما مَرِضُوا
دلُّوا هُديتَ على الدِّين الحنيف ولم … يخْطُوا خَطا الذي بالوَهْم يَعْتَرِضُ

فأجاب الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ناقضاً لما قاله الإمام المهدي:

أسأْتَ فهماً وردّاً ليسَ يَغْتَمَضُ … فكيفَ من جهل المقصودَ يعترض؟
أنكرتَ قولي؟ إن الذكر فيه هُدى … يكفي الذي ليس يقوى عنده العَرَضُ
أردتُ أن براهينَ الكتابَ هدىً … لِمَنْ تأمَّلها بالعِلم يَنتهِضُ
ولم أقُل إنّه يُغني بلا نَظَرٍ … ولا دليلٍ ولا عَقْلٍ فتعترِضُ
أجبتَ بالزُّورِ جهلاً ما دريتَ بما … أردتُ والردُّ قبلَ الفهم مُعترضُ
وحكمةُ اللّه في القُرآن واضحةٌ … دَليلُها للفِتى، والعِلم ممتحضُ
وقلتَ: إعجازُه لا يُسْتَدَلُّ به … إلاَّ بتلك التّعاليل التي امتحضوا
نسيتَ قولك إنَّ الرسلَ ما وضعوا … عِلمَ الكلام وفي ذا ليس يعترض
فإن يكونوا غَنَوا عن ذِكرهِ فلنا … أن نَقتدي أو علينا ذاك مفترض
وما أردتَ وقَدْ سلَّمتَ معتقدي … ألاَّ أُذَكِّرْ فبئسَ القصدُ والغَرَضُ
وإن تقل قصَّروا لولاك بَعدَهُم … فأنتَ رأسُ الثلاثين الذين قَضَوا[1]
فاتبع هُدى المصطفى أو خَلِّ ملَّته … فما الثلاثون في الإسلام تُغتمض

(١) في نسخة أخرى: إلا اذكروني فبئس القصدُ والغرض.

ومَنْ يَرُدَّ الذي عَظَّمت من حجج الـ ... ـقُرآن إلا امرؤٌ في قلبِه مَرَضُ
هوَّنتَ ما عظَّم الرَّحمٰن رُتبتَه ... عارٌ عظيمٌ وخِزي ليس يُرتحض
حاولت خفض كتاب اللّه وهو وإن ... رَغِمتَ أنفاً ـ رفيعٌ ليس ينخفضُ
جعلت عرضتك الوحي والد ... اعي إليه استخفت عقلك العرض
اسْتَخي- ويْحَك -وانظُرلمِيُغيظككو ... ن الذِّكر يكفي فتستعصي وتعترض
أينصرُ الدين كونُ الذكر ليس يفيـ ... ـدُ العِلم باللّه أو ذا القول يُفترض
«هذي مقالةُ من زَلَّتْ به قدمٌ» ... لا قَوْلُ من كاد من ذا الزور ينتفض
لو تعلمُ الأنبيا ما بيننا لَقَضوا ... عليكَ واطَّرحوا ما قُلتَ وانقبضُوا
كذلك الآلُ والأصحابُ والسلفُ الـ ... ـمُثْنَى عليهم على ما قلتُ قد قبضُوا
وما أرى لكَ فيما قلتَهُ سَلفاً ... إلا الحُسينيَّة[1] الضُّلاَّل وانقرضوا
قالوا: أنّه في أصول الدين أنفَعُ من ... ذاالذِّكرِوالمصطفىفيفيهمالفَضَضُ
ففضَّلُوه على المختار ويحهم ... فعُوجِلوا بانتقامِ اللَّهِ واندحضُوا
وذا الذي قلته مضمونُ شبهتهم ... هذا المبادي ومفتاح الردى المرضُ
أفي مجاميعك التحقيق ويحَكَ يا ... هذا وما فيهما عن مِثلِها عِوَض
فلو مَدَحْتَ مكان الفكر كتبك ما ... رَضِيتَ أنَّ كلامي فيه ينتقض
أفي مقدمة البحر الوفاء وما ... وفى الكتابُ بما الرحمٰن مفترض
هذا حقيقةُ ما احتجُوا به فَطَغَوا ... لا يَرْمِينَّك في مهواهم الرحَضُ
لو كانَ قولُك حقاً كانَ قولهُم ... حقاً وما كَفَرُوا فيه ولا رَفَضُوا
فاذكر إذا عَزَبَتْ عنكَ المعارفُ إذ ... غذَّتك في مستقر النطفة الحِيَضُ
عَساكَ تعلمُ أمراً أنتَ جاهِلُه ... مِنْ كُنْه قَدرِك أو دعواك تنخفِضُ
واخضع لقَدْرِ كلام اللَّهِ جلَّ جلا ... لُ مَنْ مِنهُ الجبالُ الشُّمُّ تنتفِضُ
حاشا المشايخ من علم الكلام فما ... لهم بِقَوْلِك ذَيًّا عندهم غرضُ
ألم يَقُولوا بأنَّ الجسمَ في نظرٍ ... أولى وأحرى لأن الكونَ يُعترض

---

(١) فرقة من فرق زيدية اليمن وتنسب إلى المهدي الحسين بن القاسم العِياني الذي ادّعى أنه المهدي المنتظر، وزعم أن كلامَه أبهرُ من القرآن، وأنه أفضل من النبي، وقد قتل سنة ٤٠٤هـ (١٠١٣م). راجع رسالتنا (الزيدية نشأتها ومعتقداتها).

والمعجزاتُ كقولي من أدلّتهم وذا الذي في كتاب اللّه لا العَرَضُ

ما أنتَ منا ولا منهم أراكَ لمن يعظمُ المصحف المنشور يعترض

وقولك الأمر في رفع السَّماء لنا بالفكر يشهد أن الحجة العَرَض

نقضٌ لقَولِكَ إن الذكر ليس يفيـ ـدُ العلمَ دونَ التعاليل التي محَضُوا

هذا الذي رُمْتَه هو ما أُمرت به فغصَّك الجهل والشنآن والحَرَضُ

والرفْعُ ليس يكون في مطابقة والالتزام بما يُبديه مفترض

ما القصد إلا أنها باللّه قد رفعت رفعاً بلا عُمدٍ لم يقصد العرضُ

والرفع للجسم يقضي بالإله لأن الجسم يرسب عقلاً ليس ينتهض

كنصه أنَّه لا الغيرُ يُمسكُها ويُمسِكُ الطير صافات وتنقبِضُ

لذاك خصص بالنصب الجبال وما لخلق البوازِل بالأَثقال ينتهض

وخَصَّص الأرض بالتسطيح تذكرةً كبرى وإلا فمن آياتِه الأَرَض

وكيف للحال في علم اللِّسان على وجه التصور فانظر فيه ما الغرضُ

لو كان مدلُولها ما قلتَ ما اختلفت هذي المعاني ومعنى كلها العرَضُ

وفي اختصاص السماء والأولى معها بحثٌ لطيفٌ على النظار مفترض

يدُلُّ أنَّك لو خُوطِبتَ ما ذَكَرتْ لما اشتفى لك من آياتها مرَضُ

وصحةُ الفرض مدلولُ الكلام وهل يهيمُ بالفرض قلب همُّه العَرَض

لو كَانَ ينظر في التفسير أقربُه الـ ـكشافُ إن كانَ في علم لَهُ غَرَضُ

لم يُنزِل اللّهُ آياً في السكون لنا تُتلى فتمنع من قولي وتعترض

وقلت ما ينفعُ القرآن عالِمَه إلا بتلك التعاليل التي محَضُوا

وقلتَ: معرفةُ البرهان يمكن في الـ ـوقت اليسير فذا أو ذاك منتقض

سَلْ عن تعاليلهم مَنْ كانَ يألف في الـ ـوقت اليسير فإن الحق يُمْتَحَضُ

فإن دَرَوْها بلا شيخ عَلى عجلٍ سلمت أو لم فذا الإمكان معترضُ

وبَيّن الحد في الوقت اليسير ففي إجماله خللٌ بالقطع منتقض

لم يحقن الدم من آبى الشريعة أو يدري بتلك التعاليل التي امتحضوا

فإن تجدد حكمٌ أو يعم فذا كذا وإلا فذا قولي وذا الغرض

وكل سهوٍ ولؤمٍ بعده يجب الـ ـتجديد للشك ثم الفكر يُفترض

أهـذه شـرعـةُ الإسـلام عـنـدكـم؟ ... وذاك من ذكركم بعد الكرى عِوض

فإن تقل في الذي قد أجملوا غرض ... ففي الكتاب وفي آياته غرض

فَقِفْ على هذه أو هذه ودع الـ ... ـمِراءَ وأنصِفْ فإنَّ الجهل يرتفض

ناقضتَ إذ قلتَ إنَّ الذكرَ ليس يفيـ ... ـد العلمَ دونَ التعاليل التي محضوا

ثم احتجَجت بقول اللّه منفرداً ... نسيتَ قولك والنسيان يغتمض

فابعد عن الذكر ما في قُربه فرجٌ ... يُرجى لِمثلِك فيه عندَك المرض

واطلُب كتاباً سوى القرآن يذكر فيـ ... ـهِ الجوهرُ الفَردُ والأكوانُ والعَرَضُ

واصبرْ لحربِ كتابِ اللّه إنَّ له ... حرباً دلائله الإعراض والعَرَضُ

وذُق جَنى شجراتٍ أنت غارسُها ... هذا الذي ابتكرت عفواً وذا النقض

وقلت تعلم ما الأجساد محدثة ... إلا بآي البراهين الذي فرضوا

فقد تخيرت أعلاها وأقطعها ... وقلت في الشمس من نور السها عِوضُ

اخترتَ منها ضروريَّ الحدوثِ ومنـ ... ـه المعجزات دليلاً ليس ينَدحِضُ

أدلةُ الأنبيا الهادين جاء بها الـ ... ـقُرآن ثم ارتَضوها للهُدى ورضوا

بها اطمأن خليلُ اللّه حين أتتـ ... ـه الطَّيرُ بعد الردى تسعى وتنتهض

وما تواتر من ذا العلم فهو لنا ... مثلُ العيان يقيناً ليس ينتقض

فكيْفَ تزعمُ أني للتفكر في الـ ... ـبُرهان نافٍ ونَصِّي فيه يُمتحض

ولا دليلَ على حصر الأدلة إذ ... هذي الجبال بعلم اللّه تُرتفض

لم يكفه البحر مداً بعد سبعة أبـ ... ـحُرٍ تمُدُّ فأنشأ لا الذي فرضوا

ولستُ أجهلُ في الأجناس قولكم ... ذا غير ذاك، وأيضاً ذاك منتقض

والحقُّ أن الذوات لا انحصار لها ... كما التماثل في الأجسام مفترض

وقلت رد الذي أوردت في كتب ... قد دوَّنوها لأهلِ الشك إن عرضوا

فيها الشفاء لداءِ الجهلِ إن فُهِمَت ... ومِن مقاصدها لم يَبق مُغتمض

فأنتَ أعلم أن الكتب لو نفعت ... شُفي بها منك داءُ الجهل والمرض

ذا قولُ من جهل القولين ليس له ... بحرٌ ولا نهر يجري ولا مَضَض

وليس يعجز عما قلتَه أحدٌ ... كلٌّ يعارض بالموتى ويعترض

فخذ جواب الذي أوردت من كتب ... لهم أُتيحت لأهل الزيغ أن نبضوا

وأنت متَّهم في ذي الإحالة لي ... أبين ذاك لعل الحقد يمتحضُ
أهديت لي يا حجيج القوم مضحكةً ... يلهو بها في مجونٍ من له غرض
لو كان هذا الذي قد قلت يقبل في ... وقتِ الحِجاج تَساوى الدُّرُّ والحَضَضُ
أبعد إيفاديَ البرهان تمطلني ... كمعدم يمطل المعطي ويقترض
لم أشكُ شكاً فتهديني إلى كتب ... فيها الشكوكُ وفيها يُتَّقى المرَضُ
كل يعارضُ فيها قولَ صاحبه ... نقضاً ويورِد إشكالاً ويعترض
عندي الشفاء كتابُ اللّه ليس به ... ريبٌ وفي هديه عن غيره عِوض
وفيه أيضاً لأرباب الضلال عمىً ... يزيدُهم مرضاً لمَّا له اعترضوا
وما أجبتَ إذا لم تحك أسئلتي ... إلا سباباً وهجراناً به غرض
وكان نظمُكَ في تحقيق أسئلتي ... أولى، وفي العلم عن محض الأذى عِوَضُ
وليس يعتاضُ بالعلم السباب سوى ... من كان يمحض من حقدٍ ويرتمض
وأنك اخترتَ عرضي للأذى غرضاً ... ولي أسىً لك كلٌّ منهم عَرَضُ
وما أجبتك عن عرضي مسافهةً ... فقَد تجنبت ما في ذكره مضضُ
لكن نصرتُ كتابَ اللّه محتسباً ... في اللّه أقرض أعراضاً وأنقرض
أرجو يؤيدني الروحُ الأمين متى ... نافحتُ عنه أتاني روحه يفض
في الذبِّ والسبِّ لي أجران كلهما ... أرجوه فيه ثواب اللّه والعوضُ
إذ ليس يهدر عرضي القدح في عرضٍ ... فكم بجار لسيف المدح قد عرضوا
من سادة الآل والشيخ الجليل أبي الـ ... ـحسين كانوا على هذا وما انقرضوا
وجوّد الشيخ مختارٌ أدلتهم ... في «المُجتبى» فهي شُمٌّ ليس تنخفض
وفوق ما قلته أهل المعارف قد ... قالُوا وزادُوا ولاستدلالكم رفضوا
قالوا العلومُ الضروريات حاصلة ... باللّه حقاً فما سُبُّوا ولا قُرِضوا
وكل طائفة أضحت طوائفَ في ... هذي الدقائق فما أوذُوا ولا رُفضوا
إلا المطاعن منهم في أدلتهم ... فلا تزالُ عوالي علمهم تخضُ
فاسْلُكْ سبيلَهم في العلم ممتحضاً ... للحق فالحق بالإنصاف يمتحض
ولا تروع من النقاد إن برزوا ... كما تروع من أسد الشرى الحَفِض
واغضُض فما لك في أخذ العلوم سوى ... سفرٍ كما تجمع الأخشاب والنقض

ولا تظنَّ الذكا والفهم يُجمع من … سِفرٍ كما يجمع الأنفالُ والقَبَض
فإن رجعتَ صريحاً أو رجعتَ بتأ … ويل الذي قلته في الرد فالغرض
أو لا فإني وكل المسلمين معي … في ذا عليك وفيه تجمع الغضض
هذا ومن غرضي أني أخص به … متى أكن غرضاً هذا هو الغرض
وقلت إذ قلت كم صحوا وكم مرضوا … كلا بل الكل قد صحوا وما مَرِضوا
وكيف يمكن هذا واختلافُهم … في موضع القطع باقٍ ليس ينقرض
ولم أُرد غير هذا إن مدحتهم … مدحاً صريحاً وقول الحق مفترض
وكان ردُّك بالشنآن لي سفهاً … أعماك عن فُحشه بين الحشا أَفَض
بذا تفاضلت السادات في رتب الـ … ـعليا فما يتساوى الرأسُ والربض
وقلت: إني جهول بالعلوم أجل … ولست من صفتي بالجهل أمتعض
الجهل وصفي ولم أعرف سوى نُبَذٍ … كبارق في دياجير الدجى يَمِض
ذا وصفنا في كتاب اللّه خالقنا … حقاً وتصديقُ قول اللّه مفترض
لكنني لا أرى القرآن من حمَقي … إلى مهاوي نفاقي ليس ينتهض
أُجِلُّهُ ولربي الحمد أشكره … لم أغد مثلك كالمجنون يرتكض
أستغفر اللّه من عُجبٍ وتزكيةٍ … فلستُ عن صفة التقصير أنقبض
ألم أقُل لي ذنوبٌ لو أعددها … رُدَّت عليَّ ردوداً ليس تنتقض
وفي قصائدنا للناظرين بها … جهلي وعلمُك بعد النقد ممتحض
لا سيما في الإحالات التي كشفت … تلك الرموز وما في لفظه غمض
ما طاب عيشك أو خلدتها لهباً … تسري سرى النجم لا تعيا فتغتمض
تصلى بها غير مأجور بنار أسىً … وقودها القلبُ والأفكار تعترض
ثم الصلاةُ على من في ملازمتي … لِقوله الحق عمن لامني عِوض

ولا نعرف كيف انتهى الخلاف بينهما بعدما وصل إلى هذا الحدّ من التجريح سوى ما وصف به أحمد بن عبد الله الوزير ذلك بقوله: «ولما ظهر لحي الإمام المهدي من سيدي عز الدين الانعزال، وسرى الأمرُ في المراجعة إلى بعض مسائل الكلام، انجرَّت بينهما المراسلة، ووقعت بينهما المراماةُ والمناضلة في المنثور والمنظوم، وكُلُّ ذلك

موجودٌ في كتبه وأشعاره، حتى أزِفَ التِّرحالُ، ودنا الانتقالُ، وتحوّل الحال، فاعتذر كُلٌّ من صاحبه، وقبل أعذاره، وأوضح اعتذاره، وكان ذلك في سنة ٨٣٩»، أي قبل وفاتهما بسنة واحدة.

بين ابن الوزير والمؤيد:

ذكر أحمد بنُ عبد الله الوزير في (الفضائل) في ترجمة محمد بن إبراهيم الوزير ما لفظه: «ووقف ـ رضي الله عنه ـ في فَلَلَّه[1] مدةً مع حي الإمام علي بن المؤيد على جهة الاختبار، ورافقه إلى بعض بلاد الأهنوم، ولم يكن بينَه وبينَه شيء من المصنفات إلا شيء يسير وقع فيه عتابٌ سهل، وكتب فيه حي سيدي عز الدين أبياتاً حسنة رقيقةً من محاسن الشعر وأجودِهِ قافية منصوبة الروي، وهي:

ولَو شِئتُ أبكَيتُ العُيونَ معاتباً ... وأَلهَبْتُ نيرانَ القُلوبِ دقائِقاً
ولكنَّني أصبحت للَّه طَالباً ... وأَصبَحْنَ مِنّي التُّرهاتُ طَوالِقا
فإنأنصَفَ الأَصحابُ لمأَلفَ فارِحاً ... وإن أَعْتَبُوا لم يُصبحِ الصَّدرُ ضائقا
ومن كَمُلَت فيه النُّهى لا يَسرُّه ... سرورٌ ولا خَافَ الحتوفَ الطَّوارقا
فصلني أو اقطعني وعندي خليقة ... يضيع ردياً من صديقي ورانقا
ولي نفس حرٍ ليس أكثر همها ... ملاطفةً تُرضي عليّ الخلائقا
ولولا الرجا أن أُرضِيَ اللَّه لم أكن ... على أرض من يجفو أشيم البوارقا
ولكن ذلي في رضا اللَّه عِزَّةٌ ... وإن كنت فيه للسلُوِّ مفارقا
وما ليَ إلا الصبر في الدهر جُنَّة ... وإن شيَّبَ الصبر الشَّوى والمفارقا
وما نحن إلاّ في مجاز فلا ترى ... مجازاً إذا ما كنت تبغي الحقائقا
وقائلة: عش بالسُّلُوّ ممتعاً ... ونل باكتساب الأصدقاء مرافقا
فقلت لها: لا عيش لي في سوى التقى ... ولا صاحب في الناس إلا مخالقا

---

(١) فللَّه: هجرة مشهورة في جُماعة من أعمال صَعْدة تكتب بلامين وتنطلق بلام واحدة مشدّدة.

وأين الصفا هيهات من عيش طالب   غدا لأهاويل الممات مراهقا
وللخزي في يوم الجزا مترقباً   وللصبر في دار الفناء معانقا
فلُومي رويداً إنني غير جازع   وعزمي سواي إنني لست مائقا

بين ابن الوزير وأخيه الهادي بن إبراهيم:

شاب الصلة الأخوية بين الشَّقِيقَيْن الأكبر الهادي بن إبراهيم الوزير، والأصغر محمد بن إبراهيم فتورٌ لا نعرف مداه، وذلك بسبب وجود تباين بينهما في العقيدة، فالهادي كان عالماً محققاً في علوم العربية، مبرزاً في الأصوليين: أصول الدين وأصول الفقه وفروعه، ولكنه كان ملتزماً بالمذهب الزَّيدي الهادوي التزاماً تاماً، مقلّداً لأئمّته لا يحيدُ عنه قيد شَعرة، وكان رأيُه في الخليفتين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - رأيَ غُلاة الشيعة؛ لأنَّهما في اعتقادهم اغتصبا من علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ما ليس لهما فيه حق، وهو الخلافة كما هو مُبَيَّن في قصيدته المسماة (دُرَّة الغَوَّاص في نظم خُلاصة الرَّصاص) في أصول الدين، ومطلعها:

أبا حَسَنٍ يا ٱبنَ الجَحاجِحَة الغُرِّ   من القمرِ النَّوَّار والكوكبِ الدُّرِّي

كما تناول هذا الموضوع أيضاً في قصيدته الميمية:

أقاويل غي في الزمان نواجم   وأوهام جهل بالضلال هواجم

ثم في كتابه «نهاية التنويه في إزهاق التمويه»، فقد علق على أُرجوزة الإمام عبد الله بن حمزة التي أورد فيها أصولَ العقائد عند الزيدية ومطلعها:

الحمد للمهيمن المنَّان   ذي الطَّولِ والعِزَّةِ والسُّلطان

ومنها:

حمداً لمن أَيَّدَنا بعِصْمَته   واختصَّنا بفَضله ورَحمتِه
صِرْنا بحكمِ الواحدِ المنَّانِ   نملكُ أعناقَ ذوي الإيمان

ومن عصانا كان في النِّيران بَيْنَ يدَي فِرْعَون أو هامان
لو أنه صام وصلّى واجتهد وَوَحَّد اللَّهَ تعالىٰ وعَبَد

وهي التي تناول فيها نشوانَ بن سعيد الحميري بالذم والقدح، وذلك لأنه نصب نفسَه إماماً، فحكم عليه بقطعِ لسانه وقتله، حيث قال:

أمَّا الذي عند جدودي فيه فيقطعون لِسْنَه مِن فِيْهِ
ويُؤْتِمُون ضَحْوَةً بَنِيه إذ صار حق الغَيرِ يدَّعِيه

وقد علق الهادي بنُ إبراهيم الوزير على ما قاله الإمامُ عبد الله بن حمزة في كتابة المذكور بقوله: «المسألة العاشرة ما تراه العِتْرةُ الطاهرة في مَن صوَّب نشوان بن سعيد في هذيانه، وما أطلق به من أَسَلَةِ لسانِه من الأكاليم المعْوَجَّة، السالكة في غير مَحَجَّة، المُدلي بها من دون دَلاَلَةٍ ولا حُجَّة، وكان من كلام هذا المنتصرِ لمذهبِ نشوان، هذا هو الصحيح الذي لا ينبغي خلافه يعني مساواة نشوان بأهلِ البيت غيرهم ما يكون في حكم صاحب هذه المقالة؟

الجوابُ واللَّهُ الهادي إلى نهج الصواب أن حكم المائلِ إلى مذهبِ نشوانَ حكمُه، وقد حكم عليه المنصور بالله بقطع لسانِه وقتلِه، وقال عليه السلامُ في أرجوزته المعروفة:

أما الذي نَصَّت جدودي فيه فيقطعون لِسْنَه من فِيه

إلى آخر البيت الثاني.

ثم قال: «وهذه روايةُ المنصور بالله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، ولا أصدَقُ منه راوياً ولا أفضل هادياً، رضينا بحكمه وروايته، واكتفينا بهديه وهدايته» (تأمّل).

كما قال الهادي في أرجوزته التي أنشدها مرتجلاً يخاطبُ الإمام صلاح الدين محمد بن علي:

هم أنكروا نصاً من الله العلي ... على عليّ يا بنَ مولانا علي
وحرفوا ظاهِرَه بالإفك ... وجعلوه موضعاً للشك
وانظر إلى ما لهم من زَغْم ... قد أنكروا يومَ غَدِيرِ خُمّ
أن النبي لم يُرد بالمَولى ... إلا النصيرَ كذَّبُوه قولاً
ولم يُرد قالوا به الإمامَة ... يا ويحهم من هذه الظُّلامة

إلى آخر ما في هذه الأُرجوزة الطويلة من كلام يدور حول هذا الموضوع.

أمَّا محمدُ بن إبراهيم الوزير فقد نَحَى مَنْحى السَّلف الصالح من الالتزام بالعمل بالكتاب وصحيح السنة غير مقيد لنفسه بمذهب الزيدية، ولا بأي مذهب آخر بعد أن ترك التقليد كما كان يُجِلُّ صحابة رسولِ الله كلهم رضي الله عنهم، وكان يعرفُ لهم حقَّهم ويشيد بفضلهم، وبما لهم من أيادي عظيمة على الإسلام، ويدافع عنهم بصدق وإخلاص، فكان ـ والحال كما ذكر ـ لا بدّ أن ينشأ بين الأَخوَيْن الشقيقين خلافٌ وجدال، وربما خصومة حول ما يعتقده كلُّ واحدٍ منهما ممّا يخالف به الآخر.

والشيء المؤكد والذي هو معلومٌ بالضرورة أن محمد بن إبراهيم الوزير كان غير مرضي عنه عند أخيه بعد تحوّله من المذهب الزيدي مقتفياً ما كان عليه صحابة رسول الله والتابعين لهم.

لذلك فقد سُرَّ الهادي بنُ إبراهيم كثيراً حينما أنشأ أخوه محمدٌ قصيدته الدالية التي تقدم ذكرها كاملة ومطلعها:

ظَلَّت عواذلُه تروحُ وتَغتدي ... وتعيدُ تَغنِيفَ المُحِبّ وتبتدي

وذلك لما جاء فيها من قوله:

دِيني ـ كأهل البيت ـ ديناً قَيِّماً ... متنزهاً عن كل معتقدٍ ردي
لكنني أرضى العتيقَ وأحتمي ... من كلِّ قولٍ حادثٍ متجدد

فأجاب عليه الهادي بقصيدةٍ مماثلة لها في الوزن والروي مطلعها:

عـجـلـت عـواذِلُـه ولـم تـتـأيـد　　　وجنت عليه جناية المتعمّد

ثم أشاد فيها بما تضمنته قصيدةُ أخيه من تمسكه في الأصول بمذهب أهل البيت، ثم قال:

ومـحـمـد وافـى إلـيّ نـظـامُـه　　　كـالـدُّرّ في عُنُقِ الغزال الأغْيد
رتـب محاسِنَه برقةِ شَوقٍ مَن　　　أهداه في طلب الحديث المسند
ما كان أحوجَ ذا الكمال إلى الذي　　　فيه من العيب اتقاء الحُسَّدِ
لـمـا تـنـحَّـى عـن مَحَجَّةِ أهـلـه　　　ومشى على الطرقات مَشْيَ الأَصْيد

ثم بين أن مذهب أهله هو الأولى بالاتّباع؛ لأنهم كما يقول:

أخذوا مباني علمِهم وأصولَه　　　عن أهلِهم من سيدٍ عن سيّد
سـنـدٍ عـن الـهـادي وعـن آبـائـه　　　لا عن كلام مسددِ بن مُسَرْهد

وأردف مخاطباً أخاه مشيراً إلى ما قاله:

قد قلت في الأبيات قولاً صادقاً　　　ولقد صدقت وكنت غير مفند
«هم باب حِطَّة والسفينة والهُدى　　　فيهم، وهم للظالمين بمَرْصَد
وهم الأمانُ لكل من تَحتَ السَّما　　　وجـزاءُ أحـمـدَ وِدُهـم فـتـودَّدِ
والقومُ والقرآنُ فاعرف قدرَهم　　　ثـقـلان لـلـثـقـلَـيْـن نصُّ مـحـمـد
وكفى لهم شرفاً ومجداً باذخاً　　　فرضُ الصلاةِ لهم بكل تَشَهُّد»

ثم قال الهادي معقباً على ما قاله أخوه:

هـذا مـقـالُـك فـي الـقـصـيـد وإنـه　　　محضُ الصواب وعِصْمةُ المسترشد

وأخذ يغري أخاه بالعودة إلى أحضان مذهب الآباء والأجداد، فقال:

فأَتِمَّ قولَك بالمصيرِ إليهم　　　في كل قولٍ يا محمدُ تَهتدي

فهم الأمانُ ـ كما ذكرت ـ ونهجُهم ... نهجُ البلوغ إلى تمام المَقْصَد
ما لي أراك تقولُ فيهم هكذا ... وبغير مذهبِهم تدينُ وتَقْتَدي

إلى أن يقول:

فأعد ـ هداك اللّه ـ نظرةَ وامقٍ ... في علمهم تلقَ الرّشاد لمرشد
وذكرت سنةَ أحمدٍ وحديثَه ... يا حبذا سُننُ النبيّ محمدِ
لسنا نقول بأن سنة أحمدٍ ... متروكةٌ وحديثُه لم يُوجدِ
بل سنةُ المختار معمولٌ بها ... وحديثُه شَفُّ النضار العَسْجَد
ومقالُهم في سنةٍ وجماعةٍ ... قولٌ رديٌّ ليس بالمتمخد
سبوا الوصيَّ وأظهروها سُنَّةً ... لبني الدُّنا من مُغْورين ومُنْجِد
وكذاك سموا حين صالَحَ شبَّرٌ ... ابنَ التي عُرِفَت بأكلِ الأكبد
عامَ الجماعةِ، واستمروا هكذا ... حتى تملك عصرَه المستنجد
أعني بهم عَمَراً فأنكر بِدْعَةً ... ونظيرُه في عدلِه لم يُوجد
ونقول في كتب الحديث محاسنٌ ... من سنة المختار لما نقصد
لكن نرجح ما رواه أهلُنا ... سفنُ النجاة وأهلُ ذاك المسجد
ونقول: مذهبُهُم أصَحُّ روايةً ... وأَمَتّ في متن الحديث المسند

إلى آخر ما جاء في شعره من الثناء على المذهب الزيدي الهادوي وأنه أحقُّ بالاتباع مما عداه.

وعلى الرغم من أن الهادي لم يفلح في إقناع أخيه بالعودة إلى حظيرة هذا المذهب، فإنه كان يلتمس أحياناً لأخيه عذراً، بل ويدافع عنه، وذلك حينما تتناوله ألسنةُ العلماء المُقَلِّدِين وأقلامُهُم بالقدح والنقد الجارح، وعلى رأسهم علي بن محمد بن أبي القاسم، فإنه كان يحاول أن يجدَ في كلام أئمة الزيدية ما يعضد كلامَ أخيه ويقوّي حجَجَه كما جاء في كتابه «الجواب الناطق بالحق اليقين الشافي لصدور المتقين»، وذلك كما بينا آنفاً، وإن لم يكن الهادي نفسُه مقتنعاً بما ذهب إليه أخوه، لكنه اقتنع في نهاية المطاف بأن أخاه محمداً على

الحق، وأنه لم يخرج عن منهجه المبين. ولذلك فقد مال إلى معتقد أخيه كما تشهد بذلك قصيدته اللامية التي وشّىٰ بها قصيدة أخيه التي ختم بها كتابه (العواصم والقواصم) ومختصره (الروض الباسم)، فقال الهادي:

وقفت على سمطٍ من الدُّر فاضل ترق له شوقاً قلوب الأفاضل

وسنأتي على ذكر هاتين القصيدتين في خاتمة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ومع ما جرى بين الشقيقين من الخلاف حتى فرقت الديار بينهما، إلا أنهما كانا على صلة غير منقطعة، فكانا يتبادلان الرسائل ويتطارحان الشعر، فمن ذلك قصيدة قالها الهادي بن إبراهيم الوزير مهنئاً أخاه بعودته سالماً من (حلي بن يعقوب) بعد أن أحصر عن الحج للمرة الثالثة سنة ٨١٨، بعد أن بلغه وقوع خلاف بين الأشراف ـ أشراف مكة ـ وقيام الأتراك بعزل الحسن بن عجلان، وتولية بعض أهله، فَكَرَّ حاجُّ اليمن راجعاً إلى بلاده، ولم نعثر من هذه القصيدة إلاَّ على مطلعها وهو قولُه:

إذا فَاتَ حجُّ البَيت في ذَلك المَجرى فَقَدْ كتبَ اللَّهُ المثوبَة والأجرا

فأجاب عليه محمد بن إبراهيم بقصيدة منها:

تَبارَكَ مَنْ أعطى مُحمَّداً الإسرا وأَحصرَه في عام عُمرتِهِ قَسرا
فسُرَّ بذاك المشركون لجهلهم وعَزَّ على قومٍ وقد شهدوا بَدرا

ومنها:

فلِلَّهِ مَنْ أهدى إليَّ نظامه لِيَبْرُد منّي وعظُه كَبِداً حَرًّا
أشارَ إلى زُهرِ المواعِظِ ناظِماً لهانظمَ أفلاكِ السَّما الأنجُمَ الزُّهرا
فلَم أر شعراً في الشَّعائر قَبلهُ ولا مِثلَه شِعراً يَتيه على الشِّعرى
ولَو لم يَكُنْ فيها سِوى بيتها الَّذي أرى مَلكاً أَلقَاهُ في سِرِّه سِرّا

أذاقَكُمُ فَقراً إليه لِتَعْلَموا | بأنَّ الغِنى المقصودَ أنْ تَطْعَمُوا الفَقرا
فمَنْ لم يَذُقْ هذا الغِنى في حياتِه | فقد عاش مسكيناً وإن ملك الأمرا

ومنها:

وما امتحنَ اللَّهُ الكَليمَ بفعْلِهِ | وخِدمَتِه للشَّاء في مَدْيَنٍ عشرا
لِيقضي من مهر الزَّواجة حَقَّه | ولكن ليَقضي للمُكالمة المَهرا
وما[1] كان إبراهيمُ في المنجنيق والـ | ـلظى عادِماً لُطفاً ولا ناقِصاً قَدراً
ولا ظَمئتْ في الوادِ هاجَرُ وابنُها | هواناً على مَنْ يَملِكُ السُّحبَ والقَطرا
ولا بِيعَ بالبَخس المُكرَّم يُوسفٌ | لِيُملكَ لكن حُكْمُهُ لِيَلي مِصرا
وفيما رَأى يعقُوبُ من فَقدِ يوسُفٍ | مَواعِظُ تَشفي من ملاحِظِها الصَّدرا

وكتب الإمام محمد بن إبراهيم الوزير إلى أخيه هذه القصيدة يحثُّه على الابتعاد من مجالسة الحكام إذ كان على صلة قوية بالإمام صلاح الدين[2]:

يا نجل إبراهيم لا تَنس ما | كانَ عليه بالتَّحلي أبوك
فإنَّ آباءك لو شاهدوا | بعضَ الذي تفعلُهُ أنَّبُوك
ما لَك لا تسلُكُ نهجاً وقدْ | سنَّ لنا فيه أبوك السُّلوك
وأهلُنا من قَبلِنا طالَما | عاشُوا وهُم فيه لِحَرْبِ سلوك
فانهض إلى أوطانهم شاخصاً | وارمُكْ بها إمَّا أردت الرُّموك[3]
فَوَقْفَةٌ في مسجدٍ ساعةً | خيرٌ لنا من مُلكِ ملكِ الملوك

---

(١) في نسخة: ولا كان.
(٢) هو الإمام الناصر محمد بن علي المولود سنة ٧٣٩هـ والمتوفى سنة ٧٩٣هـ، تولى الإمامة بعد وفاة والده المهدي في أيام الدولة الرسولية، وكان قد بسط نفوذه على مناطق الجبال التي يدين أهلها بمذهب الزيدية الهادوية، ثم امتد نفوذُه إلى بلاد حجَّة، فنشر في أهلها المذهب الزيدي، وكانوا على المذهب الشافعي. كما أخرج أكثر المكارمة (الإسماعيلية) من مذهبهم إلى المذهب الزيدي في بلاد يريم.
(٣) الرموك: الإقامة الدائمة.

هـذا وإن كـنـتَ امـرءاً عـاشِـقـاً ... للمُلكِ لا تَنفع لديك الصُّكوك

وإنَّـمـا تَـنـفَـعُ مـن قَـلْـبُـه ... لا يعتريه في المُلوك الشُّكوك

واعلم بأنَّ العِزَّ والزُّهدَ والفَـ ... ـضلَ وأهلَ الملوكِ طُرّاً هَلُوك

وابـعـدْ عـن الـمُـلـك وأربـابـه ... وإن هـم يَـومـاً لـه أَهَّـلُـوك

ولا تُـطِـعْـهُـم يـا شـقـيـقـي ولَـو ... ولـيـتـهـم فـي أمـرِهـم أو وَلُـوك

ولا تَـنـظـرَنَّ يـومـاً إلـى قـائِـم ... وانـظُـر إلـى مـا قَـالَـه نـاصِـحوك

وعَـاصِـهـم إنْ كـنـت ذا هـمـةٍ ... لـهُـم وطـاوِعـهـم إذا نـاصَـحُـوك

وقد أجاب عليه الهادي مؤيداً رأي أخيه الأصغر، وممتثلاً نصيحته مع أنه أكبرُ منه بسبعة عشر عاماً:

فـارِقْ بـنـي الـدُّنـيـا وإن أكـرمـوك ... وارفُض بني المُلك وإن قرَّبوك

يـومـاً إذا مـا أنـت أرضَـيْـتَـهُـم ... مَلُّوك أو أسـخـطـتـهـم عـاتَـبوك

ومِـثْـلُ خَـطٍّ فـوق مـاءٍ إذا ... عـاتَـبتهـم، والـويـلُ إن عـاتَـبوك

وإنْ هـم أَغْـلَـوكَ فـي رُتـبـةٍ ... فـإنَّـمـا فـي هُـوَّةٍ كـبـكـبـوك

إن قـطـعـوا عـنـكَ عـطـايـاهـم ... أو قَـطَـعُـوا أمـلاكَـهُـم عـذَّبـوك

لـهُـم عـلـيـك الـحقُّ فـيـهـا سَـوا ... أعْـتَـبْـتَـهُـم فـي الأمـر أو أعْـتَـبُـوك

ولا يــغُــرَّنــك أن ثَــوَّبُــوك ... وإنــمــا فـيـمـا أرى ثَـيَّـبُـوك

فـابـعـد عـن الـقـوم فـلـو جـئـتـهـم ... طـفـلاً وخـالـطـتـهـم شـيَّـبـوك

ولا تــحــمــل لــهُــم رايــةً ... فـي الـحـربِ لـو أنَّـهـم حـارَبـوك

فـإنَّـمـا تـحـمِـل فـي مِـثـلِ مـا ... أمَّ بـهـا الـمـخـتـار غـزوة تـبـوك

واقـنَـعْ مـن الـدُّنـيـا بـمـرقُـوعـةٍ ... لـو أنَّـهـا مـوضـوعـةٌ فـي مُـسـوكْ

فـارغـب عـن الـمُـلْـكِ وأربـابـه ... وإن هُـمْ فـي شـأنـه رَغَّـبُـوك

وكُـلْ حَـلالاً خَـشِـنـاً واتَّـدم ... شكراً، وكُن للدَّهر ممَّن يلُوك

وجَـالِـس الـزُّهَّـاد وانـهَـدْ إلـى الـ ... ـعبادِ واقـصِـدهُـم وإن جـانَـبوك

فـإنَّ بـعـضَ الـفُـضَـلا كـان فـي ... جـزيـرةٍ يـعـبُـدُ ربَّ الـمـلـوك

وكـانَ لا يـأْكُـلُ فـي عـمْـرِهِ الـ ... ـمحمود إلاَّ من لُحوم السُّموك

ولَيستِ الدُّنيا بمحمودةٍ ... هيهاتَ ما فيها لنا من سُلوك
والزُّهدُ منها ثَوبُ عزٍّ لمن ... يَلْبَسُه جوَّده من يحوك
لكنَّه عزُّ فتىً لابسٍ ... في ذلك الثوب الشريف المَحُوك
وقدْ أتى يا وَلَدي منكَ لي ... نَظمٌ هُو الدُّرُّ الذي في السُّلوك
كأنَّه الشَّمس ولكنَّها ... طالِعةٌ ما إن لَها من دُلُوك
هو اليقين الحقُّ ما خَالَطَتْ ... قلبي فيما قُلتُ فيه الشُّكوك
ما أوضح النَّهجَ الَّذي جئته ... وأوضح المسلَك لا فُضَّ فوك
واعلم بأنّي يا ابن أمّي على النـ ... ـهجِ الَّذي نَوَّره سابِقُوك
وكلُّ حالٍ غير هذا وإنْ ... قيلَ به لا يَرتضيه أَخوك
ولستُ بالراضي بها حَاجةً ... أحسن فيها رفضها والتُّروك
تِلكَ التي من وصف أصحابها ... حماقةُ الروم وكبرُ التُّروك

ولما مرض الإمامُ محمد بن إبراهيم الوزير في الأقهوم[1] من جبل عيال يزيد، طلب منه الهادي بن إبراهيم أن يكتُبَ له بخط يده ما يُطمئنه على تماثله للشفاء، فكتب إليه:

طَلبتَ تقريرَ خَطِّي كي تَقرَّ به ... قَلباً وعيناً وأحشاءاً وأشجانا
وفي الأناملِ ضَعفُ غير مكتبةٍ ... ورَعشةٌ لم تَدَعْ للخَطِّ تبيانا
أضْحَتْ عوامِلُ خطِّي بعد قُوَّتها ... «وهُنَّ أَضعفُ خلق اللّه أركانا»
وقد كتبتُ على عجزٍ وتعتعةٍ ... هذي القوافي للمطلوب عُنوانا
ولو غَدا ابْنُ هلالٍ والعميدُ ومَنْ ... زان الجزيرة تجويداً وإتقانا
مترجمين لما في القلب ما وَجَدوا ... إلى بيان الَّذي في القلب إمكانا
وقَدْ وقَفْتُ على الأبيات جامِعةً ... وداً ولُطفاً وإعجازاً وإحسانا
ولَيْسَ في قُدْرتي وصفٌ لموقِعها ... ولَو تحوَّلتُ في الإحسان حسَّانا

(١) الأقهوم ـ بالقاف لا بالكاف كما تنطق اليوم ـ: عزلة من ربع عيال يحيى بن ناحية جبل عيال يَزيد من أعمال قضاء عَمْران، ثم من لواء صنعاء.

وقد أجابه الهادي بن إبراهيم الوزير مهنئاً له بشفائه، فقال:

بُشرى بعافية العُلوم كلامها ... وحديثها وحلالِها وحرامها
وأصولِها وفروعها وبيانها ... وبديعها وغريبها ونظامها
لمحمدٍ شفيت وزال سقامُها ... وبه شفاء الداء من أسقامها
لما ألمَّ بجسمه ألمٌ سرى ... مِنه إلى الأرواح في أجسامها
وشفاه من آلامه ربُّ السَّما ... فشفى عُلومَ الدِّين من آلامها
حمداً لمن أولاك بردَ سلامةٍ ... وحَبَاك من تُحفِ الهدى بسلامِها
اللَّهَ أحمدُ قد شفى لي مهجةً ... هامَت، وحُقَّ لها عظيمُ هيامِها
لمحمد عِزِّ الهدى وهو الذي ... قد حلّ في العلياءِ فوق سنامها
هذا الذي أحيا العلوم وذا الذي ... أحيا التِّلاوة فهو بدرُ ظلامها
اللَّه قَلَّدني بذلك نعمةً ... عُظمى ينوء الشُّكر تحت مَصامِها
لا يهتدي الدُّعموص طرق رمالها ... أبداً ولا التِّمساحُ في قمقامها
لو أن عدناناً حبتني كُلُّها ... ببيانِ منطقها وحُسن كلامها
ما كُنتُ أبلغ شكرها من نعمةٍ ... لو كانتِ الأشجارُ من أقلامها
فاللَّهُ يوزِعُنا جميعاً شُكرها ... ويزيدُنا حمداً على إتمامها
إني أقولُ مقالةً قد قالها ... عُمَرٌ ببطحا مكَّةٍ وإكامِهَا
مَع حُسنِ خاتِمةٍ أفض خِتامَها ... ورِضاه عنِّي يا لطيب خِتامِها

بين ابن الوزير والمُقْرِي:

ولما اطَّلَع الإمام العلاَّمة شرفُ الدين إسماعيل بن أبي بكر المقري الشافعي على «الروض الباسم في الذبّ عن سنة أبي القاسم» مختصر «العواصم والقواصم» كتب إلى مؤلفه رحمه الله ما يلي: «ولقد وقف المملوكُ على «الروض الباسم»، فما هو إلا الحسامُ القاصم، ولقد وقع من القلوب موقع الماءِ من الصادي، والنَّجح من الغادي، والراحة من المعمور، والصلة من المجهور[1]، ولقد نصرتَ الحديثَ

(١) في نسخة: من المخمور والصلد من المهجور.

على الكلام، والحلالَ على الحرام، وأوضحتَ الصراطَ المستقيم، وأشرتَ إلى النَّهجِ السَّليم[1]، ولم تترك شبهة إلا فضحتها، ولا حُجَّةَ إلا أوضحتها، ولَا زائغاً إلا قوّمته، ولا جاهلاً إلا علمته، ولا ركناً للباطل إلا خفضته، ولا عقداً لمبتدع إلا نقضته، ولقد صدقت اللّهَ في النيّة[2] في الرغبة إليه، ووهبت نفسك لله، وتوكلتَ عليه، فالحمد لله الذي أقرّ عين السنة بمكانه، وأدالها على البدع وأهلها ببرهانه[3]، فلقد أظهر من الحق ما ودَّ كثير من الناس أن يكتمه، وأيّد دين الأمة الأمية[4] بما علمه الله وألهمه، فعُض على الجذل، وسيجعل الله لك بعد عسر يسراً، وإنا لا ندري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً، وإذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه، وفتح لمن أراد له الدخول بابه.

إذا الـلَّــه سَـنَّـى حَـلَّ عَـقْـدٍ تـيـسـرا

ومن وقف على ما أفحمتَ به ذلك المعتدي[5] من الحق الذي استحلفت فيه بالإعجاز والتحدي، علم أن بينه وبينَ النفثات النبوية أسباباً[6] شريفة لا تُحلّ عقودها، ولا تُضاع حقوقها، ورحماً بلَّها ببلالها، وبادر إلى صلتها ووصالها، لقد أبقى نوراً في وجه الزمان، وسروراً في قلوب أهل الإيمان، وقلّدت جِيدَ السنة منه[7] وأيّ منة، أصبح شخصُك ملموحاً بأعين البصائر، وحديثُك[8] ملتقطاً بأسماع الضمائر والمنة في ذلك المصنف على عامة أهل الملة وخاصة أعيان

---

(١) تاريخ الهجري المنقول، وتبيين المنهج السليم.
(٢) في نسخة: في الرغبة إليه.
(٣) في نسخة: وأذالها على المبتدع وأهله.
(٤) في نسخة: الحنفية.
(٥) في نسخة: المتعدي، والمقصود به علي بن محمد بن أبي القاسم.
(٦) في نسخة أنساباً.
(٧) وفي نسخة: وقلدت منه جيد السنة بمنة.
(٨) في نسخة: وذلك.

هذه النحلة، فحق على الكل أن يعرفوا حقه إن كانت لهم أفهام تقدره حقّ قدره، وأن يستضيئوا بنوره إن كانت لهم أبصار تثبت للنور فجره، وأرى لهم أن يكتبوا[١] أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب. سمع الدعاء[٢] إلى الفلاح فوثب، وقلب الله قلبه إلى الحق فانقلب، من غير ترهيب استفزه، ولا ترغيب هزّه، ولا محاسدة اعترته، ولا مناظرة غيّرته، بل توفيق من الله[٣] إلهي، وإلهام سماوي سهل عليه مفارقةَ العادة وما نشأ عليه بدءاً وإعادة، وإنَّ أمراً هذا أوله، فعواقبه عن النجاح مسفرة، وقصداً هذا مبتدؤه، فمغارِسُه مثمرة.

وإني لأرجو اللّه حتّى كأنّني أرى بجميلِ الظَّنِّ ما اللّهُ صانعُ

ومِن جواب محمد بن إبراهيم الوزير عليه:

ومِنْ عجبٍ لم أقْضِه منه أنَّه توهَّمني في العلم سامي المراتب
أغرك أنّي قد ذُكرتُ وإنَّما ذكرتُ لأني من جبال المغارب
وقد عَدِمَت فيها البصائرُ والنهى فطيب ذكري[٤] موتُ كلِّ الأطايب
ولو عدمت وُرقُ الحَمائِم لم يكُن بمستبعدٍ تشبيبنا[٥] بالنَّواعِب
وألبست تأليفي العَواصِم بالثَّنا جمالاً أطاب الشكر من آل طالِب
وما فيه من حسن سوى أنه شجا روافِض صحب المصطفى والنواصب
وما كان تأليفي له عن تضلُّع من العلم يشفي الصدرَ من كُلِّ طالب
ولكنني والحمدُ للّه منصف أذُبُّ بجهدي عن صحاح مذاهبي
فلا تتوهَّمني بعلم محققاً فإنَّك ما جرَّبتَ كُلَّ التجارب
توهمت ناراً بالتخيُّلَ حينما[٦] دجا الليلُ وامتدت ذيولُ الغياهب

(١) في نسخة: وأن يكبتوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكبت.
(٢) في نسخة: النداء.
(٣) في نسخة: توفيق إلهي.
(٤) في نسخة: فطبت بذكري.
(٥) في نسخة: تشبيهنا.
(٦) في نسخة: حيثما.

رويداً خليلي لا يغُرّكَ إنما ... رأيت التي تُدعى بنار الحُباحِب
وما كُلُّ نار نارُ موسى لِمهتدٍ ... ولا كُلُّ برقٍ في الثقال الهَواضِب
نصحتُك لا أني تواضَعتُ فانتَفِع ... بنُصحي فما أرضى خِداعاً لصاحب
ولا زِلتَ يا خيرَ الأفاضل باقياً ... رضيع لبان للعُلا والمناقب

مرحلة التدريس:

ولما تَصَدَّر للتدريسِ، أقبل عليه طلبةُ العلمِ من كل مكانٍ، لينهلوا من علومه الواسعة، ومعارفه المتنوّعة، وقد سأله بعضُ إخوانه القراءة عليه في بعض كتب المنطق، فأجاب عليه بقوله كما في «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان»، ص ٤٠، وكما في «تاريخ الوجيه العطاب».

يا طالِبَ العِلمِ والتَّحقيق في الدين ... والبحثِ عن كُلِّ مكنونٍ ومخزون
أهلاً وسهلاً عسى من رامَ تبصرةً ... منِّي وهدياً إلى الخيرات تهديني
لكِن أطِعني وأَنصِف في الدَّليل معِي ... فمَنْ يُقلِّد فيه لا يُواتِيني
أُمرتَ أن تطلُب الدِّين الحَنيف ولَو ... بالصِّين أو بالأقاصي من فِلِسْطِين
والعِلمُ عَقلٌ ونَقلٌ ليسَ غيرهما ... والعقلُ فيكَ وليس العقلُ في الصِّين
أُمرت أن أطلب العِلمَ الشريف ولو ... بالصِّين إن كان عِلمُ الدِّين في الصِّين
والعلمُ بالعقل علمٌ لا يشط به ... عن أهلهِ فلوات البَيْن في البين
ففي حديثِ ابن عمران لنا عبرٌ ... فانظر إلى شأنِ موسى صِنْو هٰرون
من رامَ سعياً إلى معقولِهِ حقباً ... فعندَهُ العقلُ بَلْ عندَ الشَّياطين
بل رامَ مكنون علمٍ ليس يدركُهُ ... فهمُ العقولِ بمعلومِ البراهين
مواهبٌ من يقينٍ غير ممكنةٍ ... للخَلْقِ تهجم في يسرٍ وتهوين
وواردات من الإيمان ليس تطيـ ... ـقُ النَّفس جحد هدىً منها وتبيين
تكونُ عند وقوع الخارقات وعنـ ... ـدالفكرِ منها وبالإخبات واللِّين
وبالتضرُّع عن ذلٍّ ومسكنةٍ ... تمكّن العبد منها أيَّ تمكين
به اطمأنَّ خليلُ اللَّهِ حينَ دَعَا الـ ... ـموتى فأحيى له الأطيار في الحِين

ومؤثِرُ الحقِّ أغناهم بغير غنا ... ثعبانُ موسى المثنى في الفراقين
وذا دليلٌ كليمُ اللّهِ في الشغوى ... وحجةُ اللّه في بعثِ المیامین
وقومُ عيسى أرادوا منه مائدةً ... ليطمئنُّوا بها لا وضع قانون
وعلَّل اللَّهُ في القرآنِ ودَّهُمُ ... لنا وعرفانهم بالسَّمع واللِّين
وقومُ أحمدَ لمّا جاء ذكرهُمُ ... أغنت طواميه عن طلِّ المساكين
وكان أعظم في الإسلامِ مرتبةً ... من كلِّ ما مرَّ في ماضي الأحايين
وأيُّ معجزةٍ دامت مكلّمة ... لنا بكلِّ المعاني والبراهين
فلم يُجبهم أمين اللّه مكتفياً ... به إذا لم يكن فيهم بمأمون
وانظر كلام عليٍّ في وصيَّتِهِ ... ريحانة المصطفى خير الرّياحين
وسائر الآل قد أوصوا من العلم الـ ... ـمنصوب فينا إلى الهادي بصفّين
وأمّ موسى اطمأنّت حين ما طرحت ... موسى بوحيٍ وحقٍّ غير مظنون
أمِثلُ هذا من التَّدقيق مكتسبٌ ... أم من أبانةِ قلبٍ غير مأفون
ومريمٌ حين جاء الروح في مثل ... لها بسرٍّ من الرحمٰن مكنون
بأيِّ شيءٍ من الأسباب نزَّهها ... في المهدِ أي مزكى الذات ميمون
بالخوض في جدليات الأوائل أم ... بالاعتزال وذكر اللّه والدِّين
ومثله في جريج والرضيع وفي الـ ... ـأخدود وهي صحاحٌ في الدواوين
وفتيةُ الكهف قد قص الإلٰه لنا ... حديثَهُم وأحاديثُ الميامين
هٰذي الخصائص والمعقول نعمتَهُ ... مبذولةٌ بين مهديّ ومفتون
فواضح العقل معروفٌ وغامضه ... مواقف ومجازاتٌ لذي الدين

إلى أن يقول ناصحاً له أن ينصرف عنه إلى ما هو أنفع وأجدى:

إنَّ البصائِرَ كالأبصار ليس ترى الـ ... ـخفيَّ جداً سوى رجمٍ وتظنين
لذا تخالَف أهلُ العقل واضطَّربوا ... فيه كعادَتِهِم في كلِّ مظنون
قلَيتُ ذا العلمَ من بعدِ الرُّسوخ به ... واعتضتُ بالذِّكر منه غير مغبون
ما فيه إلا عباراتٌ مزخرفةٌ ... أتى بهنَّ ابنُ حزم بالتَّبايين
كمْ مِن فتىً منطقي الذِّهن ما خطرت ... بالبال منه اصطلاحَاتُ القوانين

وكَمْ فتىً منطقي كافرٍ نجسٍ ... كالكلبِ بل هُو شرٌّ منه في الهون
يرى وسَاوس أهل الكُفرِ منقبةً ... فهماً ويسخَرُ من طٰه وياسين
كذلِك الرُّسْلُ لم يُعْنُوا بذاك إلى الـ ... ـمحمّد من سليلِ الماءِ والطِّين
بل اكتفوا بالَّذي في العقل معْ نظرٍ ... سهلٍ بغير شيوخ كالأساطين
معَ اعتراض شياطين الخُصوم لَهم ... وشُهرة الطِّعن في كلِّ الأحايين
ورُبَّما كان في التدقيق مفسدةٌ ... للقلب أو لافتراق النَّاس في الدِّين
مثل الغلوِّ بأفعال الخوارج كالـ ... ـوِصال والاختصا خوفاً من العين
واللَّهُ أعلمُ والرسلُ الأكارم من ... شيوخ[1] جبّة قطعاً غير تخمين[2]

ولا شكّ أنَّه قد حصر اهتمامه في المقام الأول بنشر علوم الكتاب والسنّة، وتدريسها لطلبة العلم، ولكنه لما ظهر أمره، وبَعُدَ صيتُهُ، واشتهر علمُه بين الناس، خاف على نفسه من فتنة الشهرة، وحُبِّ الدُّنيا، فعزف عن المضيّ في هذا الطريق، ورجع لمحاسبة نفسه على ما أسلف.

ولما عُوتب على انقطاعه من مجالس التدريس أجاب عليهم بقوله:

لامَـني الأهـلُ والأحـبَّـةُ طُـرّاً ... لاعتزالي مجالِس التَّدريسِ
أشفقوا أن أكون فارقتها من ... رغبة عن دروس علم الرُّسُوسِ
قلتُ: لا تَعذِلُوا فما ذاكَ مِنِّي ... رغبةً عن عُلومِ تلكَ الدُّروس
هي رياضُ الجِنان من غير شكٍّ ... وسَناهَا يُزري بنورِ الشُّموس
غيرَ أَنَّ الرِّياض تَأوي الأفاعي ... وجِوارُ الحَيَّات غيرُ أنيس
حَبَّذا العِلمُ لو أَمِنْتُ وصاحَبْـ ... ـتُ إماماً في العِلم كالقَاموس

---

(١) شيوخ جُبَّة المراد بهم المعتزليان أبو علي، وأبو هاشم الجبائي، نسبة إلى جُبَّة بضم الجيم وتشديد الموحدة، قرية بالعراق.
(٢) ترجيح أساليب القرآن ٤٠ ـ ٤٢، مِطلع البدور استطراداً في ترجمة صلاح ابن أحمد المهدي المؤيدي.

غَيْرَ أَنّي خَبرتُ كُلَّ جليسٍ فوَجَدْتُ الكتابَ خير جليس
فدَعُوني فقد رضيتُ كِتابي عِوَضاً لي عن أُنسِ كُلِّ أَنيس[1]

وهذا هو ما حدثنا به محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير في وصف حاله قائلاً: «ثم إنه بعد ذلك انتصب لنشر هذه العلوم، وتصدّر برهةً من الزمان، وهرعَ إليه الطلبة من كل مكان، فاستناروا بمعارفه، واقتبسوا من فوائده، فظهر أمره، وبَعُد صيته. فلما رأى أن في هذا طرفاً من الدنيا والرئاسة قرع نفسَه وقمعها، ومنعها مما تشوَّقت إليه وردعها، ثم أقبلَ على الله بكليته، فلزم العبادة والأذكار، وقيام الليل وصيام النهار، وتأديب النفس وإذلالها للملك الجبار، فألجمها بلجام الزُّهد، وجرّها بعنان التَّقوى، وأخزاها[2] في ميدان الورع، وساقها بسوط الصبر، وأدخلها اصطبل الخلوة، وربطها إلى جدار التوكل، وعلفها الجوع، وسقاها الدموع، وألبسها سرابيل الذل والخضوع، وتوَّجها بتاج التبتل والخشوع، ولم يبق نوع من أنواع الرياضة، ولا طريق من طرق السلوك إلا سلك بها مسلكه، وشرع بها في جناحه، وكلفها تحمّل أعبائه».

زهـده:

ولقد كان يخصِفُ نعلَه، ويكتسِبُ لأهله، وربما تظاهر بأنواع التصرفات والحرف، كحرف الفدادين والجفاة، ويلبَسُ الصُّوفَ الخشن، ويُفطِرُ على قرص الشعير بلا إدام، ويقصِدُ بذلك رياضة نفسه وتحقيرها وتصغيرها، وردعها، وتعريفها بمنزلتها عنده، ثم يقول: ومن رقائق أشعاره في بُعده من الناس وانقطاعه أبيات كان كتب بها إلى المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى في عقب دعوته:

---

(١) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ٤٠، والعواصم من القواصم ٣/ ١١٠ ـ ١١١.

(٢) في نسخة: وأجراها.

أعـاذِل دَعْـنـي أري مُـهـجـتـي ... أزوفَ الـرَّحـيـل ولُـبـس الـكَـفـن

وأَذفِنُ نـفـسـيَ قَـبـل الـمَـمَـاتِ ... في البيتِ أو في كُهُوفِ القِنَنْ

فـإنْ كُـنْـتَ مقـتـديـاً بـالـحُـسَـيْـنِ ... فـلـي قُـدوةٌ بـأخـيـه الـحَـسَـن

فَقَدْ حَمِدَ الـمُصطفى فِعلَهُ ... لإطـفـائِـهِ لِـنـيَـار الـمِـحَـن

ولَـو كـانَ فـي فِـعْـلِـهِ مُـخْـطِـئـاً ... لـمـا كَـانَ لـلمَدْحِ معنىً حَسَنْ

وأقبل ما في حديث الرَّسُولِ ... مـن ذِكـرِ مـوجِ بـحـارِ الـفِـتَـن

فـإنَّ الـسَّـلامـة فـي الإعـتـزالِ ... جـاءتْ بِـذَا مُـسـنـداتُ الـسُّـنَـنْ

وفـي درسِ آي الـكـتـابِ الـعَـزيـز ... وتـرجـيـعـهـا لـيـهـيـج الـحَـزَن

ودرسِ الصَّحيح من المُسنَداتِ ... إلى المُرْسَلِ العَاقِب المؤتمَنْ

ومحو الذُّنوبِ بدمعٍ يصوب ... على ما مَضى في قديمِ الزَّمن

وأمسِ الرسوم محَتْهَا الغُيُوم ... وأنسى الحبيب وأنسى الوَطن

وأنـسـى الـدِّيـار وسُـكَّـانـهـا ... ومـا كَـانَ لـي فـيـهـم مِـن شَـجَـنْ

وأبكي بشجوٍ على مُهجَتِي ... بُـكـاءَ الـحَـمـائِـم فـوقَ الـفَـنَـن

فـإنِّـي رأيـتُ الـوَرَى ظَـاعِـنِـيـ ... ـنَ نَحْوَ البِلى ما لَهُمْ من سكن

فـأيـقَـنْـتُ أنـي بِـلا مِـريَـةٍ ... غداً ظاعِنٌ مِثل مَنْ قد ظَعَن

سأَجْعَلُ ذِكر البلى في القُنوت ... مـكـان ادِّكـار الـلُّـوا والـدِّمَـنْ

وأورد من كلامه في الزهد قوله:

«أيها السائر إلى ديار الموتى، قد سارت الدُّنيا وما تدري والراكب لسفينة البقاء، أما علمت أنها إلى الفناء تجري؟ أنتَ المغترّ بمدة العُمُر وهي قصيرة، والمُفتن في أنواع الهوى بغير بصيرة، عجباً من اختلاف أحوالك وأطوارك، وتقلُّباتك وأسفارك، أمّا أسفار دنياك، فتشفق فيها من عبدٍ عاجز أن ينهب طِمرك، وأما سفرك إلى أُخراك، فتأمن فيه من ربٍّ قادرٍ أن يَقْصِفَ عمرك، ما أخوفك في موضع السَّلامة، وآمنك في موضع المخافة، أما خوفك، فحيث ينجو الغني بفلوسه، والفقير ببؤسه، والمترفِّق برفقائه، والقوي بقوّته، وأما أمنُك،

فحيث ارتعدت فرائصُ الملوك القواهر، ولم يدفع عنهم الحصون ولا العساكر ضَلَّة لرأيك، فاستيقظ، وضيعة لعمرك فاستحفظ.

يا مُولَعاً بوصالِ عيشٍ ناعم ستُصَدُّ عنهُ راضِياً أو كارِهاً
إنَّ المنيَّة تُزعِجُ الأحرار عَنْ أَوْطَانِهم والطَّيرَ عن أوكارها

فقطع حبائل الأمل ورجاه. واعلم أنك إن لم تمت فجأة مرضت فجأة، فاستعن على ترقيق قلبك وخشوعه، واحتسب[1] طرفَكَ بتصور حال خروج الروح من الجسد، والمفارقة للأهل والولد، والسَّفَر ليس بعدَهُ إياب إلى المنزل الذي وساده الحجرُ، وفراشُهُ التراب حيث لا أهل ولا أصحاب، ولا أنس ولا أتراب، هيهاتَ ما في الترابِ من تِرب، ولا في الشراب من شرَب. إن آخر قضاء الإخوان لحقوقك، وأوّل قطيعتهم لك وعقوقك، هيلُهُم للتراب على قبرك عند الدفن، وإدرارهم من الدمع ما سَحَّ به الجفن، ثم كلما رَمّ جسمُك في لحدك، وأكل الترابُ من جلدك، رمَّت عندهم حبائلُ ودّك، وامَّحت رسومُ عهدك. وإلى هذا أشار من يقول في بعض الفصول: صدق المثل: (لا صَدِيقَ لميت لو كان يصدق مات حين يموتُ)، فما اشتغالُك بما لا ينفعك في معاشك، ولا معادك، ولا يُبصرك[2] في اقترابك ولا ابتعادك، اصْحَبْ صاحباً لا تحتاج معه إلى سواه، وهُمّ عملاً واحداً لا تكلف نفسك إلا إياه، لعل قلبَكَ بذلك الصاحب يأنس، ونفسَكَ من غير ذلك العمل تيأس، إنَّكَ إن جلوت بالخلوة فؤادك، وقصرت على الخير مرادَكَ، وكحلت عينك سُهَادَكَ، واتخذت الله في كل أمر عمادَكَ، وشفعت بالدموع لمردود وجهك الذي لا حياء في ديباجته، ورفعت إلى الله يديك مرتعشاً من هيبته وجلالته، وشفعت ذلك بإطالة السجود والناس هُجود، وبالإلحاح في طلب القبول والناس

(١) في نسخة: واستحلب شؤون طرفك.

(٢) في نسخة: ولا ينصرك.

غفول، رَجَعَتْ لك رعاية تأخذ بضُبْعَيْك عند السقطات، وتُنقذك من ورطتك عند الورطات، لعلهم إن عَلِمُوا بحبه، يرعون حق ودِّهِ لقلبه، ويسمحون طول بُعده منهم بحسن وصله وقربه، فييأس الحساد من حنينه، ويستريحُ من عظيم كربه بإراحة القلب وسلوانه، إن لم يُفِدْه مودة من ربه».

ومن كلام له رضي الله عنه: «إخواني قَطِّعُوا مرائر الآمال، فإن الأمر قريب، واستكثروا من صالح الأعمال، فإن السفر بعيد، وسرّحوا أبصاركم في مواطن الأهوال، فإن الأمر جليل، وقلِّبوا أفكاركم في عواقب الأحوال، فإن اللُّبث قليل، واهتدوا بنور القرآن في ظلمة الحيرات، وانتفعوا بقول الرحمٰن ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ألا أدلّكم على طبيب هذه النفوس ومطلقكم من هذه الحبوس، عليكم بالقرآن، فإنه الطبيب الآسي، عليكم بالقرآن فإنه الكريم المواسي، ارتعوا في رياض حواميمه، انتفعوا ببيان طواسيمه، اقتدوا بأعلام مصابيحه، استقوا بغمام مجاديحه»، إلى قوله:

«انظروا إلى معجز لا ينالُهُ طاقاتُ العباد، وجديدٍ لا يخْلقُ على الترداد، وأسلوب يتعالى عن الإقواد والسِّناد، وغريب لا يُماثِلُهُ ما في الأنجاد، وعربي جاء به أفصح من نطق بالضاد، تحدّى به مَهَرَة الكلام فأسكتهم، وأردى به فرسانَ البيان فكبتهم، أظهر به عجزَهم، وأبطل به عُزَّاهُم وعِزَّهُم، وتلاه في مجامع محافلهم المشهودة بمسالفهم، وأوحاه في مسامع جحافلهم المرفودة بمصاقعهم، فقالوا مرة: ساحر كذاب، وتارة: شاعر مرتاب، تاللّهِ لهم أكذب وأشعر، وأعرفُ بأساليب الكلام وأسحر، راضوا فنون البلاغة وملكوها، وارتضعوا أضاريب البلاغة ولاكوها، وخاضوا أودية الشعر وغماره، ومارسوا أعمارهم كهولة وأغماره، فما بالهم وهذه الفرية على من لا يُحسن إقامة بيت من أوزانه، ولا يدري بأفنانهم في ميدان عروضه وميزانه، وأعجب من هذه

رميهم له بالخيانة وهو في ألسنتهم يُدعى الأمين، وبهتهم له بالخيانة وهو في بيوتهم مُصاصة المُصاصة في النسب العربي المبين، معروف البشارة في باديتهم ومَكَّتِهم، مشهور العدالة في بطحائهم وبكَّتهم... إلى كلام طويل حذفناه اختصاراً»[1].

عُزلته:

وقد ابتعد الإمام الوزير عن الناس حتى عن أهله، ومال إلى الزهد والورع، واشتغل بالذكر والعبادة، كما ذكر أحمد بن عبد الله الوزير في كتابه «الفضائل»، وملازمة الخلوات والأماكن الخالية، كمسجد وهب[2]، ومسجد نُقُم، ومسجد الروية، ومسجد الأخضر، وفي المنازل العالية على سطح الجامع ينقطِعُ في بعض هذه الأماكن ثلاثة أشهر: رجب وشعبان ورمضان، ويعتذِرُ عن موافقة أهله وأرحامه، ويسألهم إسقاط الحق من الزيارة وعن غيره.

كما كان يذهب إلى المفاوز، وشِعاف الجبال، وبطون الأودية، وأقام بعضَ الوقت في رأس قُلة بني مسلم[3] (جبل سَحَمَّر)، ووصف حاله بقوله:

فَحِيناً بِطَودٍ تُمطِرُ السُّحْبُ دُونه ... أشَمُّ منيفٍ بالغَمام مُؤزَّرُ

إذا التفت الساري به نحو قُلَّة ... توهَّمها من طولها تتأخَّرُ

وحيناً بشعبِ بطنِ وادٍ كأنَّه ... حَشَا فلم تُمسي به الطَّيرُ تصفرُ

أُجاوِر في أرجائه البُوم والقَطا ... فجيرانُها للمرءِ أولى وأجدر

هُنالِكَ يصفُو لي من العَيْش وِرْدُه ... وإلاَّ فَوردُ العيشِ رَنْقٌ مُكدَّر

(١) ليت المترجم أثبتها كاملة!

(٢) مسجد وهب بن منبه في العرضي الأعلى جنوب باب اليمن.

(٣) جبل مشهور في عزلة بني مِسْلِم من أعمال يريم، وما يزال في أعلى هذا الجبل بقية مسجد يدعى مدرسة ابن الوزير نسبة إليه، وقد زرته يوم السبت غرة محرم الحرام سنة ١٤٠٩ ـ ١٣/٨/١٩٨٨م.

فإن يَبِسَت ثَمَّ المراعي وأجدَبَت ... فرَوْضُ العُلا والعلم والدين أخضرُ
ولا عَارَ أن ينجو كريمٌ بنفسه ... ولكنَّ عاراً عجزُهُ حين يُنصر
فقَدْ هاجر المختارُ قبلي وصحبُهُ ... وفرَّ إلى أرض النجاشيّ جعفرُ

شعره:

له شعر كثير في أغراض شتّى، وأكثره في مدح علم الحديث ومدح أهله، وقد تقدم شيء من ذلك، ومنه قوله:

إن كان حبّي حديثَ المصطفى زللاً ... مني فما الذنبُ إلا من مصنفه
وإن يكنْ حُبُّه ديناً لمعترفٍ ... فذاك همِّي وديني في تَعَرُّفه
ومذهبي مذهبُ الحقِّ اليَقين فماً ... يُحوِّل الحال إلاَّ من تَشَوُّفِه
وذاك مذهبُ أهلِ البيتِ إنّهم ... نصُّوا بتصويب كُلٍّ في تصرُّفه
نَصُّوا بتصويبِ كلٍّ في الفروع فما ... لومُ الذي لام إلاَّ مِن تَعسُّفه
فما قفوتُ سوى أعلام منهجه ... ولا تلوتُ سوى آياتِ مُصحفه
أما الأصولُ فقولي فيه قولُهم ... لا يبتغي القلب حيفاً عن تحنّفه
ففي المَجَازاتِ أمضي نحو معلمه ... وفي المحارات أبقى وسطَ موقفه
فإن سعيتُ فسعيي حَوْلَ كعبته ... وإن وقفتُ ففي وادِي مُعرّفه
وحقِّ حبي له إنِّي به كَلِفٌ ... يُغنيني الطبعُ فيه عن تكلُّفه
هذا الذي كَثُرَ العُذَّالُ فيه فما ... تَعجَّبَ القلبُ إلا من معنّفه
ما الذنب إلاَّ وقوفي بين أظهرهم ... كالماءِ ما الأَجْنُ إلاَّ من توقفه
والمندلُ الرطب في أوطانه حَطَبٌ ... واسْتَقْر صرفَ اللّيالي في تصرّفه
يستأهل القلبُ ما يلقاه ما بَقِيَتْ ... لَهُ علاقة توليعٍ بمألفِه[1]

وله أيضاً في العشرة المبشرين بالجنّة:

للمصطفى خيرُ صحبٍ نص أنهم ... في جنّة الخلدِ نصاً زادهم شرفا

---

(١) في نسخة العواصم والقواصم ٣/ ١١٠:

يستأهل القلب ما يلقاه ما بقيت ... له علائق تغريه بمألفه

هم طلحة وابن عوف والزبير إلى ... أبي عبيدة والسعدان والخلفا

وله أيضاً[1]:

تنكّبْ عن طريق الجبر واحذرْ ... غوائل مبدعات الاعتزال
وسر وسطاً طريقاً مستقيماً ... كما سار الإمام أبو المعالي
بأفعال العباد غدا إماماً ... رضا عند التفرق غير عالي

وله أيضاً:

إذا فُتحتْ أبواب رحمةِ ربِّنا ... صَغُرْنَ لديها موبقات الجرائم
وإنْ هي لم تُفتَح ولم يُسْمَح الخطا ... فعُدّ من الهُلاّك أهل العزائم
وما الربحُ والخُسران إلا لحكمة ... بها جَفَّت الأقلامُ قبلَ الخواتم
كما حجب الأبصار عن كُنْهِ ذاته ... لِذَا حَجَب الأسرارَ عن كلِّ عالم
فَقُلْ لجميع الخائضين رُويدَكم ... فليسَ بسرِّ الرَّبِّ فيكم بعالِم
فهذا مرامٌ شَطَّ مرمَى العُقُولِ في ... مَداه فما في سُبْلِه غيرُ نادمِ

ومن شعره قوله:

يبتلي العبدَ ربُّه ... وهو في أرفع الدرج
بقليلٍ من الأذى ... ويسيرٍ من الحرج
فإذا عيل صبره ... جاءه اللّه بالفرج

بعضُ ما مُدِح به الإمام ابن الوزير من نثر وشعر:

حظي بثناء كثير من العلماء الذين عرفوا قدره وعلو منزلته العلمية، وغزارة معارفه، فقد وصفه الأديب البارع وجيه الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر العطاب في «تاريخه» بقوله: «الإمام الحافظ أبو عبد الله شيخ العلوم وإمامها ومن في يديه زمامها، قُلِّد فيها وما قلَّد، وألفى جِيدَ الزمان عاطلاً، فطوقه بالمحاسن وقلّد، صنَّف في

(١) العواصم والقواصم ٧/ ١٩٤.

سائر فنونها وألف كتباً تقدم فيها وما تخلّف، وله في حديث النبيّ ﷺ الباع المديد والشأو البعيد، الذي ما عليه مزيد، وله شعر تحسده زهر النجوم، وتودّ لو أنها في سلكه المنظوم».

وجاء في «تاريخ البريهي» المطوّل قوله: «ومنهم السيد الشريف البارع جمال الدين محمد بن إبراهيم الحسني الهادوي أخو الشريف الهادي المقدّم ذكره، كان إماماً يرجع إليه في المعضلات ويقصد لإيضاح المشكلات. أجمعت القلوب على إجلاله واحترامه وتفضيله وإكرامه ولزومه طريقة أهل السنة ومجانبته لأهل البدعة. ترجم له بعض أئمة الزيدية، فقال: «هو السيد السند الإمام العلاّمة المحدث الأصولي النحوي المفسر المتكلم الفقيه البليغ المفوه الرحلة الحجة السني، فريد عصره ونادرة دهره، وخاتمة النقاد، وحامل لواء الإسناد وبقية أهل الاجتهاد بلا خلاف ولا عناد. كشاف أصداف الفرائد، قطاف أزهار الفوائد، فاتح أقفال الطرايف، مانح أبقال اللطائف، مصيب شواكل المشكلات بنوافذ أبصاره، مطبق تفاصيل المعضلات بصوارم أفكاره، مضحك كمائم النكت من نوادره، مفتح نواظر الطرائف من موارده ومصادره».

وقال الحافظ ابن حجر في «إنباء الغَمْر» استطراداً في ترجمة أخيه الهادي ابن الوزير: «وله أخ يقال له محمد بن إبراهيم مقبل على الاشتغال بالحديث، شديد الميل إلى السنة، بخلاف أهل بيته» (تأمل).

وقال القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال في كتابه «مطلع البدور» في وصفه: «المحيط بالعلوم من خلفها وأمامها، والحري بأن يُدعى إمامها وابن إمامها. كان سبَّاق غايات وصاحب آيات وعنايات، بلغ من العلوم الأقاصي، واقتداها بالنواصي، فما أجد على قصوري عبارة عن طوله، ولا أجد في قولي سعة لذكر فعله وقوله».

وقد تقدم ما أثنى به عليه أحمد بن عبد الله الوزير في «تاريخ آل الوزير» والإمام الشوكاني في «البدر الطالع».

ومدحه الشاعر شهاب الدين أحمد بن قاسم الشامي المتوفى بمصنعة الجحادب من الحيمة، بقوله:

أَلِمَّ بمحمودِ السجايا محمد	يُعنك وإن ضاقت عليك المسالِكُ
فتقتبس الأنوارُ من روض علمه	وتُلتَمَسُ الأزهارُ وهي ضواحك
هو البحر علماً، هو البدرُ طلعةً	هو القَطْرُ جوداً وهو للمجد مالك
كفاه كتابُ اللّهِ والسنة التي	أتانا بها مَنْ صدقته الملائِكُ
ففاضت له من حضرة القدس نُكتة	من العلم سرّاً فيضُها متدارك
فأشرق منها طُورُ سِيْنين بهجةً	ونوراً تعاطته النجومُ السوامِكُ
فماشاطىءالوادي المقدس من طُوى	ولا نوره إلا عليه يُبارك
ولم يَتبع نعمانهم وابن حنبل	ولا ما يقولُ الشافعي ومالكُ
وأعلامَ أهلِ البيتِ ردَّ علومَهم	ومازالَ يحكي ضعفَها وهو ضاحِك[1]
وما ذاك إنكارٌ لمشهورِ فَضلهم	ولكنَّه في منهجِ الحقِّ سالِكُ
وأما رجالُ الاعتزال فإنَّه	لِما صنفوه في الأصوليين تارك
إذا كان ذاك العلمُ منهم فعقلُه	لتلك العقول العالمات مشارِكُ
هنيئاً لقوم قلَّدوه لأنه	أنار المعالي وهي سُودٌ حوالِكُ
كأني بهم في جَنَّةِ الخُلد حوله	لهم سُرُرٌ مرفوعةٌ وأرائك
فهذا الذي أحيا شريعةَ جدِّه	وأحيا به من في الضَّلالة هالِكُ
فَلَوْ قَلَّدوه الأمر كان خليفةً	وقلت له الدنيا وتلك الممالك
وقصَّر كسرى عن مداه وقيصرٌ	وهرموزهم، والنردَسَين[2] وبابك
وسار وتاجُ المُلك من فوق رأسه	كذا سارَ عيسى وهو للَّه ناسِكُ
وحوليه من آل النَّبي عِصابةٌ	ترق للقياها الجبالُ البوارك
يدورُ عليها من جديد سحائب	بوارِقُها تلك السيوفُ البواتِكُ

(١) قال ابن أبي الرحال في ترجمة أحمد بن قاسم الشامي: إن هذا البيت لم يرق للإمام محمد بن إبراهيم الوزير.

(٢) في نسخة: والنردشير.

فيا لك من أقمار ليلٍ تقلنست ... كـواكِـب إلاَّ أنَّـهـن بـرائِـكُ
يَشُقُّون قَلبَ الجيش والموتُ شاهد ... فيمضون قسراً والقنا متشابِكُ
غُيوث ولكِنْ حين لا يسمحُ الحيا ... ليوث ولكن حينَ تحمى المعارِكُ
أولئك أهلُ البيت أثنى بمدحهم ... وتطهيرهم مَن للسَّموات سامِك
فيا ابنَ رسولِ اللّهِ لستُ ببالغ ... ثـنـاءَكَ إلاَّ أنَّـنـي مـتـبـارِكُ
فخُذها بعفوٍ منك واستُر عيوبَها ... ولا يهتكن تلك الستارة هاتِكُ[1]

وهذه أبيات كتبها العلامة العارف البارع يحيى بن رويك الطويلي[2]، وكان مقيماً في تعز، يمدح الإمام محمد بن إبراهيم الوزير:

أراك تَـلُـوم ولا أَرعَـوي ... فَـخَـلِّ الـهـديرَ وخلِّ الـدوي
كـلامُـك فـي الـحـق لـم تـعـدُه[3] ... فيدخل في سمعِ صَبٍّ جَوِي
وأنـتَ الـحـكـيـم وأنـت الـرشـيـد ... فدَعْ عنك لَوْمَ السفيهِ الغوي
تـمـلَّـك قـلـبي حُـبُّ الـحـبـيـب ... وصارَ على عرشه مستوي
ومـا زالَ يـنـشـرُ فـيَّ الـسُّـقـام ... غـرامٌ عـلـيـه فـؤادي طـوي
ومـا ضَـحِـكَ الـبـرقُ إلاَّ بـكـيـتُ ... بُـكـاً ما شَـفـى لي قـلـبـاً دَوِي
يَـلُـوحُ فـيـمـطـر مـن أعـيـنـي ... دموعاً كَوَبْلِ السحاب الروي
وأتـبـعـه مِـن حـنـيـنـي ومـن ... زفيري رعداً شديد الـدوي
ويُـوقـد فـي الـغـيـم نـاراً بـهـا ... يـذوبُ فـؤاديَ أو يـنـشـوي
لـهـا لـهـبـاتٌ يـبـيـت الـظـلام ... يـجـفـل عـنـهـنّ أو يـنـزوي

---

(١) من ترجمته لمحمد بن عبد الله بن الهادي الوزير.

(٢) هو أبو محمد شيخ النحاة في عصره باليمن، تفقه بصنعاء، ثم استوطن تعز، ومدح الملوك، وقامت له رئاسة معهم، وكان على طريقة العرب في ارتجال الشعر، مات سنة ٨٣٥ في نخل وادي زبيد، ودفن هناك. (الضوء اللامع ١٠/ ٢٢٥)، وقد أشار إليه المؤرخ البريهي في «تاريخه» بأنه أحد شيوخ الفقيه شهاب الدين أحمد بن علي البرحي.

(٣) في نسخة: ملامك في الجو لم يَعْدُه.

وقد طَارَ عَنْ وكر جفني الكَرَا ... فَلَيْس إليه لَه من أوي

وساهرني البرق حتّى الصباح ... كما ساهَرَ الخِلَّ خِلٌّ نوي

ويظهر لي كلما شمته ... تضرُّب من جُنّ أو من حَوِي

كأن الذي بي من لوعة ... به فهو يقلق أو يلتوي

تَصوَّب من صوبِ صنعاء لي ... فشَبَّ الهوى من فؤادي الهوي

وذكرني من ثوى ثم من ... أناس لهم في فؤادي ثوي

مهماتُ قلبي ادُّكارهم ... يؤلفها البارقُ الأسنوي

أحنُّ إليهم حنينَ النياق ... وأثغوا غراماً ثُغاء الشوي

ولا سيما عزَّ دينِ الهدى ... وقطبِ رحا الشرف الهادوي

محمد المرتدي بالكمال ... وسالك كل صراط سوي

وإنسان عين بني المرتضى ... ودُرَّة عقدهم اللؤلؤي

وبحر المعارف ذاك الذي ... غدا البحر في جنبه كالطوي

ورافع أعلام علم الحديث ... وناصب عرش الهدى المنهوي

وناشر سنة خير الأنام ... وقد كان منشورها منطوي

ومُحييها وبإحيائها ... جلا ذهب المذهب اليحيوي

تجرد في بعث مقبورها ... وإنقاذ ما كان فيها ثوي

وما زال يفتي بها في أزال ... ويخدمها خدمة المقتوي

ويسفك في نصر أعلامها ... بصُمِّ اليراع دِماء الدوي

فروضتُها الآن مخضرَّةٌ ... ترِفُّ من الرِّيِّ بعد الذّوي

ومرتعها قد غدا مُعشِباً ... ومن بعد صفرته قد حوي

فَلِلَّهِ دَرُّكَ من سيِّدٍ ... على كُلِّ مكرمة محتوي

ودَرُّ جَحَاجِحَةٍ أشبهوك ... من هادويٍّ ومن مهدوي

هُمُ مثلُ أحرف بيت القصيد ... وأنتَ لهم مثلُ حرف الروي

إليكم أحِنُّ حنيناً إذا ... ظما كادَ ضلعِي به يشتوي

وأذكركم فيكادُ الفؤاد ... يذوبُ من الشَّوقِ أو ينشوي

فقلبي كليمُ بموسى الفراق ... وحُبِّي برؤيتكم موسوي

أحـبُّـكـم يـا بـنـي أحـمـدٍ وحـبُّـكـم أسُّ ديـنـي الـقـوي
أحـبُّـكـم مثـل حـبِّ الـمـسيـ ـح دان بـه الرَّاهـب الـعـيـسوي
أوفـيـكـم حَـقَّ حـبـي ولا أُدَنِّـسـه بـغُـلُـوٍّ الـغَـوي
وأهـوى عـلى البُـعدِ لُقياكـم ولُـقـيـاكـم خيـرُ شيء هـوي
وأعـلـم أنـكـم كـالـوُكـور ونـحـنُ طـيـورٌ إلـيـهـا أوي
عَـطِـشْـتُ إلى لَـثْـمِ أقدامِكُـم فـيـا لـيتَ شعـري متـى أرتـوي
فـلا زلـتُـم يـا بـنـي أحـمـد كـهوفاً إلـيها اللحـاق الـضوي

مؤلفاته:

اشتغل بالتأليف منذ سن مبكرة، فقد صنَّف «العواصم والقواصم» وهو دون الثلاثين سنة، ولم ينقطع عن التأليف حتى قرب وفاته رحمه الله، وهذا بيان لها أوردتها بحسب الترتيب الهجائي:

١ ـ الأمر بالعزلة في آخر الزمان، واسمه «أنيس الأكياس في فضل الإعراض عن الناس»، وقد حققه ونشره الأستاذ إبراهيم باجس عبد المجيد من الأردن.

٢ ـ إيثار الحق على الخلق في معرفة الله تعالىٰ ومعرفة صفاته على مناهج الرسل والسلف. صنّفه سنة ٨٣٧هـ وهو آخر مؤلفاته، وقد طبع. ويوجد في (العواصم والقواصم) في الجزء الثامن صفحة ١٤٢ وصفحة ٣٨٣ ما يدل على أن (إيثار الحق على الخلق) متقدم على (العواصم والقواصم)، إذ ينقل في العواصم كلاماً نشر في (إيثار الحق على الخلق).

٣ ـ البرهان القاطع في معرفة الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع[1]، فرغ من تأليفه في رجب سنة ٨٠١هـ وقد طبع، وقال يحيى ابن

(١) ذكر مؤلفه في العواصم والقواصم ٢٠٧/١ أن أصل هذا الكتاب للرازي واسمه «الأربعين في أصول الدين»، ثم قال: وقد أخذت كلامه وزدت عليه أكثر منه وجعلته مصنفاً مستقلاً سميته «البرهان القاطع».

الحسين: «وله كتاب البرهان في أصول الأديان قرّر فيه الاستدلال بالظنيات في الأصول وهو خلافُ الجمهور»، ولعلَّه هو البرهان القاطع.

٤ ـ التأديب الملكوتي، وهو مختصر، وفيه عجائب وغرائب، قال صلاح بن أحمد بن عبد الله الوزير: لم أجد هذا الكتاب في الخزانة، وإنما وجدتُ منه وُرَيقاتٍ يسيرة من مُسوَّدَتِه زادت الأسف عليه.

٥ ـ تحرير الكلام في مسألة الرؤية وما دار بَيْن المعتزلة والأشعرية وعندي نسخة منه.

٦ ـ التحفة الصفية في شرح الأبيات الصوفية لأخيه الهادي بن إبراهيم الوزير وعندي نسخة منه.

٧ ـ ترجيحُ أساليب القرآن على أساليب اليونان في أصول الأديان[1]، وقد طبع.

٨ ـ تنقيح الأنظار في علوم الآثار وهو كتاب جليل القدر، جمع فيه علومَ الحديث، وزاد فيه ما يحتاج إليه طالبُ الحديث من علم أصول الفقه، وأفاد فيه التعريف لمذهب الزيدية، وهو يُغني عن كتاب العلوم للحاكم، صنفه سنة ٨١٣هـ، وشرحه البدر محمد بن إسماعيل الأمير، وسماه «توضيح الأفكار على تنقيح الأنظار» في مجلدين، وقد طبع.

٩ ـ الحسام المشهور في الذبّ عن دولة الإمام المنصور، لا يزال مخطوطاً، ومنه نسخة في خزانة الجامع الكبير بصنعاء.

(١) ورد اسمه في العواصم والقواصم ١/ ٢١٤ «ترجيح دلائل القرآن على دلائل اليونان»، وفي الكتاب نفسه ٣/ ٣٣٦ «ترجيح أساليب القرآن لأهل الإيمان على أساليب اليونان في أصول الأديان وبيان أن ذلك إجماع الأعيان»، وقد اختصره الناصر بن عبد الحفيظ بن عبد الله بن المهلا المتوفى سنة ١٠٨١.

١٠ ـ حصر آيات الأحكام، وقال يحيى بن الحسين في «طبقاته»: وكتاب في آيات الأحكام قدر مائتين وست وثلاثين آية، وقد شرحها محمد بن الحسين بن الإمام القاسم، وسماه «منتهى المرام شرح آيات الأحكام».

١١ ـ العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم في أربع مجلدات، وقد صدر في تسعة أجزاء عن مؤسسة الرسالة، وقد اختصره في مجلّد وسماه «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم». فرغ من تأليف المختصر يوم الأربعاء الثالث من شهر شعبان سنة ٨١٧هـ، وقد طبع مرتين، كما ترجم إلى اللغة (التاملية)، وذلك كما جاء في نشرة أخبار التراث الإسلامي، العدد السابع عشر (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

١٢ ـ قبول البشرى في تيسير اليُسرى[1]، مجلد لطيف ضمنه ما يجوزُ من الرّخص وما لا يجوز، وما يكره وما يستحب، وأقوالُ أهل العلم في ذلك.

١٣ ـ كتاب في التفسير من الكلام النبوي ذكره في «إيثار الحق على الخلق»، وقال: جمع فيه ما في جامع الأصول، ومجمع الزوائد، والمستدرك للحاكم. وقال صلاح بن أحمد بن عبد الله الوزير: ولم يُوجد هذا الكتاب.

١٤ ـ مجمع[2] الحقائق والرقائق في ممادح رب الخلائق، وقال فيه بيتين:

(١) سماه مؤلفه في العواصم والقواصم ١/٢٩٨ «قبول البشرى بتيسير اليسرى»، وقد طبع في مصر عام ١٣٤٩.

(٢) وقد نشرت مختارات منه اختارها وعلق عليها علي بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي، وطبعت في المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨١هـ.

ولي فيك ديوانٌ سَقَيتُ فنونَه دُموعي فأضحى رُوضُه مُتفنِّنا
وكنتُ امرءاً أهوى البراهين في الثَّنا فرصعتُه فيها فَجاءَ مُبَرْهَنا

١٥ ـ مختصر في علم المعاني والبيان.

١٦ ـ نصر الأعيان على شرِّ العميان كتبه ردّاً على أبي العلاء المعري:

وقال فيه ما لفظه: «وقد ولع بعض أهل الجهل والغِرة بإنشاد الأبيات المنسوبة إلى ضرير المعرة، وهي أحقر من أن تسطَّر، وأهون من أن تُذكر، ولم يشعر هذا المسكين أن قائلها أراد بها القدح في الإسلام من الرأس، وهدم الفروع بهدم الرأس، وليس فيها أثارَةٌ من علم، فيستفاد بيانُها، ولا إشارة إلى شبهة، فيوضح بطلانها، وإنما سلك قائلها مسلك سفهاء الفاسقين والزنادقة المارقين، وما لا يَعْجِزُ عن مثله إلاَّ الأراذلُ من ذم الأفاضل بتقبيح ما لهم من الحسنات، وتسميتها بالأسماء المستقبحات، تارة ببعض الشبهات، وتارة بمجرد التهويل في العبارات، كما فعل صاحب الأبيات[1]، وصدَّر ـ أي الإمام ابن الوزير ـ الكتاب المذكور بهذه الأبيات:

ما شأنُ مَنْ لم يَدْرِ بالإسلامِ والخَوضِ في متشابه الأحكام
لو كُنْتَ تدري ما دَرُوا ما فاه بالْـ ـعَوْراءِ فُوكَ، ولا صَمَمْتَ صَمام

(١) لعل الإمام ابنَ الوزير اطلع على كتاب (شرح رسالة الحور العين) للقاضي نشوان بن سعيد الحميري، فقد ورد في صفحة (٢٦١) أبيات منحولة لأبي العلاء المعري وهي:

الشافعي من الأئمة واحد ولديهم الشطرنج غير حرام
وأبو حنيفة قال وهو مصدق فيما يفسره من الأحكام
شرب المنصف والمثلثِ جائزٌ فاشرب على أمن من الآثام
وأجاز مالك الفقاح تطرفاً وهم دعائم قبلة الإسلام
وأرى الروافض قد أجازوا متعة بالقول لا بالعقد والإبرام
فافسق وُلط واشرب وقامر واحتجج في كل مسألة بقول إمام

فاعتقد أن قائلها هو أبو العلاء، فكتب (نصر الأعيان على شر العميان).

لكِن جمَعْتَ إلى عَماك تعامياً وعُمومَةً فجمعتَ كلَّ ظلام
فاخسأْ فما لَك بالعُلُوم دِراية القولُ فيها ما تقولُ حَذَامِ
ما أذكر العُميان للأعيان بل ما أذكر الأنعامَ للأعلام
وإذا سخِرْتَ بهم فليسَ بضمائِر إنْ هَرَّ كلبٌ في بدور تمام
من لم يكُن للأنبياء مُعظِّماً لم يَدْرِ قدرَ أئمة الإسلام
لمْ تدرِ تغلِبُ وائلِ أَهَجَوتَها؟ أم بُلتَ تحتَ الموجِ وهي طوامي

وقال محمد بن عبد الله بن الهادي: وقد أحببتُ ذكر هذه الأبيات لما فيها من الذبّ عن أئمة الإسلام.

١٧ ـ رسالة في عدم اشتراط الإمام الأعظم في صلاة الجمعة.

١٨ ـ كتاب في علم المعاملة.

١٩ ـ ديوان شعره، وقد أشاد الإمام الشوكاني بهذا الديوان بقوله:

طالع الديوان إن رمـ ـتَ بيوم الحشر تَسْعَد
فهو في الإعجاز عذري من براهين محمّد

وأما المسائل والردود على أصحاب الأفكار المُبَدِّعة، فلا يأتي عليها العد ولا يُستطاع على ما تضمنه الرد.

وفاته:

توفي رحمه الله يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من المحرم غرة سنة (٨٤٠)[١]، بمرض الطاعون الذي انتشر في اليمن في سنة (٨٣٩) وسنة (٨٤٠هـ)، وقد دفن في الرَّوِيات (مسجد الرَّوِيَّة) المعروف اليوم بمسجد فروة بن مُسَيْك قبلي مصلى العيد بجوار جدار المسجد،

(١) وتوفي في اليوم نفسه الإمام المنصور علي بن صلاح الدين، كما توفي الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى في اليوم الثاني عشر من صفر من السنة نفسها، أي: بعد نصف شهر من وفاتهما فقط، وكانت ولادة المهدي والإمام محمد بن إبراهيم الوزير سنة ٧٧٥هـ.

ولشمس الحور بنت أخيه الهادي بن إبراهيم الوزير فيه قولها من أبيات:

رَحِمَ اللَّهُ أَعظماً دفنوهَا   بالرّويات عن يمين المُصلّى

وقال يحيى بن الحسين في طبقاته: وروي أن الوزير حسن باشا (الوالي العثماني في اليمن من غرة ذي الحجة سنة (٩٨٨ ـ ١٠١٣) لما عمّر المسجد الذي بفروة وجدّده، وعمر قبة أكيدة البناء الباقي إلى الآن، وجد قبر السيد جنب المواثر على حاله فأبقاه مكانه[١].

خلاصة القول:

تبيّن مما عرضناه أن الإمام المجتهدَ المطلق المجدِّد محمد ابن إبراهيم الوزير رحمه الله قد التزم بالعمل بأحكام القرآن الكريم، وصحيح السنّة النبوية في كلِّ أمرٍ من أمور الدين، ولم يحفل بغيرهما، وحثَّ علماء عصره على اتّباعهما، كما أنه دافع عن السنة النبوية وأهلها دفاعاً مشهوداً، وأبلى في ذلك بلاءً حسناً، حتى قَلاَهُ بعضُ أهله وأقربُ الناس إليه، بلْه غيرَهم، ولكنه لم يأبه لذلك على الرغم مما سبب له من متاعب، ولم يخش إلاَّ الله وحده، وظلَّ يُكثرُ من الإشادة بالسنة في أعماله وأقواله، فكان أكثرُ شعره في مدح الحديث ومدح أهلِه؛ فمن ذلك قصيدته الدالية التي سبقَ ذكرُها في هذه الرسالَة، وأولها:

ظلت عواذلُه تروحُ وتغتدي   وتعيدُ تعنيفَ المحبِّ وتبتدي
يا حبذا يومُ القيامة شُهرتي   بينَ الخلائق في المقام الأحمدِ
لمحبتي سُنَنَ الرَّسول وإنَّني   فيها عَصيتُ مُعَنِّفي ومُفنِّدي

(١) قبره معروف إلى اليوم في مقصورة ملاصقة للمسجد المذكور من جهة الشرق بشمال، وبجواره قبر رئيس العلماء في عصره أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الكِبْسي المتوفى سنة ١٣١٦هـ رحمهما الله.

وتركتُ فيها جيرَتي وعشيرتي   ومحلَّ أترابي ومَوضِع مَولدي

إلى أن يقول:

إني أحبُّ محمداً فوق الورى   وبه ـ كما فعل الأوائلُ ـ أقتدي
فقد انقضت خيرُ القرون ولم يكن   فيهم بغير محمدٍ من يهتدي

وقال في مقدمة كتابه «الروض الباسم» مختصر «العواصم والقواصم»: «ولم يكن بدعاً أن تنسَّمتُ من أعطارها روائح، وتبصرت من أنوارها لوائح، أشربت قلبي محبة الحديث النبوي والعلم المصطفوي، فكنت ممن يرى الحظّ الأسنى في خدمة علومه، وتمهيد ما تعفَّى من رسومه، ورأيت أولى ما اشتغلت به ما تعيّن فرض كفاية بعد الارتفاع، وتضييق وقت القيام به بعد الاتّساع، من الذبّ عنه والمحاماة عليه، والحثّ على اتّباعه، والدعاء إليه، فإنه علمُ الصدر الأوَّل، والذي عليه بعد القرآن المعوَّل، وهو لعلوم الإسلام أصلٌ وأساس، وهو المفسرُ للقرآن بشهادة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، وهو الذي قال الله فيه تصريحاً: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، وهو الذي وصفه الصادق الأمين بمماثلة القرآن المبين، حيث قال في التوبيخ لكلّ مترفٍ إمَّعة: «إني أوتيتُ القرآنَ ومثله معه»، وهو العلم الذي لم يشارك القرآن سواه في الإجماع على كفر جاحد العلوم من لفظه ومعناه، وهو العلم الذي إذا تجاثت الخصوم للرّكَب، وتفاوتت العلومُ في الرتب أصمت مرنان نوافله كلّ مناضل، وأصمت برهانُ معارفه كلَّ فاضل، وهو العلم الذي ورثه المصطفى المختار والصحابةُ الأبرار، والتابعون الأخيار، وهو العلم الفائضة بركاتُه على جميع أقاليم الإسلام الباقية حسناته في أمة الرسول عليه السلام، وهو العلم الذي صانه الله عن عبارة الفلاسفة، وتقيّدت عن سلوك مناهجه، فهي راسخة في الأغلال آسفة، وهو العلم الذي جلّي الإسلام به في ميدان الحُجَّة وصلَّى، وتجمل بديباج ملابسه من صام لله وصلَّى، وهو العلمُ الفاصل حين

تلجلَجُ الألسنةُ بالخطاب الشاهد له بالفضل رجوع عمر بن الخطاب، وهو العلم الذي تفجَّرت منه بحارُ العلوم الفقهية والأحكام الشرعيَّة، وتزيّنت بجواهره التفاسير القرآنية، والشواهد النحوية، والدقائق الوعظية، وهو العلم الذي يُميّز الله به الخبيثَ من الطيِّب، ولا يرغم إلا المبتدع المتريّب، وهو العلم الذي يسلك بصاحبه نهج السلامة، ويوصله إلى دار الكرامة، والسارب في رياض حدائقه، الشارب من حياض حقائقه، عالم بالسنة، ولابس من كل صوف جُنَّة، وسالك منهاج الحق إلى الجنَّة، وهو العلم الذي يرجع إليه الأصولي وإن برَّز في علمه، والفقيه وإن برَّز في ذكائه وفهمه، والنحوي وإن برز في تجويد لفظه، واللغوي وإن اتّسع في حفظه، والواعظ المبصر، والصوفي والمفسّر كلهم إليه راجعون، ولرياضه منتجعون».

ومثل قوله:

العلم ميراث النبي كذا أتى	في النصِّ والعلماء هم ورَّاثُه
فإذا أردتَ حقيقة تدري لمن	وراثه فكرتَ ما ميراثُه
ما وَرَّث المختارُ غير حدِيثه	فينا، وذاك متاعه وأثاثُهُ
فلنا الحديثُ وراثةً نبويةً	ولكل محدِثٍ بدعة إحداثُهُ

هذا هو ما كان يعتقده الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ويطبقه قولاً وعملاً. وإذا كان قد ورد في كلامه ما يدلُّ على أنه كان يجنح إلى بعض معتقدات الزيدية الهادوية، كما جاء في هذه القصيدة الدالية نفسها، مثل قوله:

هذي الفروع، وفي الأصول عقيدتي	ما لا يخالف فيه كلُّ موحد
ديني ـ كأهل البيت ـ دِيناً قيماً	متنزهاً عن كل معتقدٍ ردي
لكنني أرضى العتيق وأحتمي	من كل قولٍ حادثٍ متجدّد

والعتيق: أقوالُ أهل البيت المتقدمة على ما تضمنه «الجامع

الكافي» كما جاء في ترجمته في «طبقات الزيدية» ليحيى ابن الحسين بن القاسم، ثم قال:

وأحبُّ آل محمدٍ نفسي الفِدا	لهم، فما أحدٌ كآلِ محمَّد
هم بابُ حِطَّة والسفينة والهُدى	فيهم، وهم للظالمين بمَرصَد
وهم الأمانُ لكل من تحتَ السما	وجزاءُ أحمد ودُّهم فتودّد
والقومُ والقرآنُ فاعرف فضلهم	ثَقلان للثقَلَيْن نصُّ محمدِ
ولهم فضائلُ لستُ أحصي عدَّها	من رام عدَّ الشهب لم تتعدَّد
وكفى لهم شرفاً ومجداً باذخاً	شرعُ الصَّلاة لهم بكل تشهُّد

ومثل قوله في مقدمة كتابه «الروض الباسم في الذبّ عن سنة أبي القاسم»[1]: «وأصلي وأسلم صلاةً دائمة تملأ ما بين الأرض والسماء وما بينهما، وعلى آله الكرما الثقل المذكور مع القرآن[2]، أئمة الإسلام، وأركان الإيمان، المتوّجين بتاج ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ الشاهد بمناقبهم كتابُ «ذخائر القربى»[3].

ومثل ما جاء في كتاب «الجواب الناطق بالحق اليقين الشافي لصدور المتقين» للعلامة الهادي بن إبراهيم الوزير، الذي دافع فيه عن أخيه الإمام محمد بن إبراهيم الوزير، بأنه قد تخلّى عن مذهب أهل البيت، وأنه قد أنكر ورود (حيّ على خير العمل) في ألفاظ الأذان، وذلك في ردّه على مزاعم جمال الدين علي ابن محمد بن أبي القاسم الذي تحامَل ظلماً وجوراً على أخيه

(١) الصفحة ٣.

(٢) إشارة إلى ما ورد في بعض الروايات «إني تركت فيكم ثقلين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتابُ الله وعترتي أهل بيتي».

(٣) كتاب «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى»، لمحب الدين أحمد بن عبد الله الطبري المتوفى سنة ٦٩٤.

محمد بن إبراهيم الوزير، واتّهمه بأنه أنكر صحتها، وأنها ليست من ألفاظ الأذان البتّة[1].

فإن هذا الجنوح إلى بعض معتقدات الزيدية ـ إن ثبت تمسكه بها عن عقيدة ـ فإنما هي مداراة لخصومه الذين وقفوا له بالمرصاد، وشدَّدوا عليه الخناق، ورَمَوْه بكلِّ شنيعة، وأعلنوا عداوَتَهم له بضراوةٍ شديدة، ونالوا منه بضرُوبٍ من العَنَت وصنوفٍ من الأذى، وذلك

---

(١) ذكر الإمام يحيى بن حمزة المتوفى بذمار سنة ٧٤٩ في «الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين» أن التأذين بحي على خير العمل هو إجماع أهل البيت وتابعيهم، وقال بقوله العلامة المجتهد الحسن بن أحمد الجلال في كتابه «ضوء النهار» ٤٦٨/١، وقد عقب عليه الإمام محمد ابن إسماعيل الأمير بقوله: «لكن صحة الإجماع لا تكاد تتم، كيف ولم تأت رواية أن أمير المؤمنين عليًا عليه السلام أمر أن يُؤذن في خلافته، وقد لبث خمس سنين خليفة، فلو كان عمر رضي الله عنه حذفه (أي حذف لفظ حي على خير العمل) من الأذان كما يقول الشيعة لأرجعه، بل لو كان عمر حذفه لما سكت عليٌّ رضي الله عنه، ولا أذَّن به، فإنه لما مَنَع عمرُ المتعة في الحج لم يتابعه علي عليه السلام بل تمتَّع. وذكر يحيى بن الحسين في (بهجة الزمن في أخبار سنة ١٠٧٩، أنه جرت مذاكرة بينه وبين القاضي حسن بن يحيى حابس الدوّاري في مسألتين، إحداهما في إجماع أهل البيت وقول من قال إنه حجة، فقال القاضي محتجاً على عدم كونه حجة: إنهم بعض الأمة، ويدلّ عليه غزوة ذات السلاسل، فإن النبيّ ﷺ صوّب عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة (ذات السلاسل)، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ، فقال: يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، قال: سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً. فدلّ هذا على تصويب المخالف لإجماع أهل البيت؛ لأن النبيّ ﷺ قد قرّر اجتهاد عمرو بن العاص، ولم يقل بقوله واجتهاده أحد من أهل البيت الذين كانوا ذلك الوقت كعلي والحسن والحسين، فلما قرّره النبيّ ﷺ على صحة اجتهاده واجتهاد من اجتهد مثله من بعده من غير أهل البيت، فكان تقرير النبيّ ﷺ لاجتهاد عمرو حجّة على صحة الاجتهاد من غيرهم على كل حال.

ليخفّف من حقد نفوسهم عليه، وكراهيتهم الشديدة له، ولإيهامهم بأنه لم يخرج عن عقيدة أهل البيت، حتى كان يضطَرُّ أحياناً إلى استعمال التَّقيَّة، كما بين ذلك في كتابه «العواصم والقواصم» ١/ ٢٥٥ بقوله: «وقد سلكت في هذا مسلكَ الجدليِّين فيما يُلزِم الخصمَ على أصوله، ولم أتعرض في بعضه لبيان المختار عندي (تأمل) وذلك لأجل التَّقية من ذوي الجهل والعصبية (تأمل) فلينتبه الواقفُ عليه، فلا يَجعَل ما أجبتُ به الخصوم مذهباً لي».

وكان إذا احتجّ بقول أحد أئمة الزيدية، فإنه يقول: قال فلان عليه السلام، وإن كانوا جمعاً، فإنه يقول: عليهم السلام، حتى شيخه علي بن محمد بن أبي القاسم خصمه اللدود، فإنه حينما يذكره يقول: قال ـ أيّده الله ـ وذلك لحسن المداراة وإشعار المناصبين له العداء أنه لا يزال يجلّ علماء وأئمة المذهب الزيدي. وذلك لأنه كان يخشى ـ إذ لم يهادن خصومه للضرورة ويداريهم بما لا ينقض معتقده ـ أن يحُولَ رعاعُ الناس بينه وبين استمرار دعوته للناس بترك التقليد وباتّباع كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ والعمل بهما، كما حدث للإمام المهدي محمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى المتوفى سنة ٧٢٨، وقيل: سنة ٧٢٩، الذي خشي من رعاع الناس أن يحولوا دون ممارسته للعمل بالكتاب والسنة بحرية تامة، فقال معبِّراً عن حاله بتوجّع وحسرة:

الرفعُ والضمُّ والتأمين مذهبنا ومذهبُ الآل والأصحاب والفقها
ما كان تركي له ـ واللّه ـ عن مَلَلٍ لكن خشيتُ على عِرضي من السُّفها

ولم ينس الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ما جرى في عصره للفقيه العلاَّمة أحمد بن زيد الشاوري من علماء الشافعية، الذي قتله الإمام صلاحُ الدين حينما غزا بلادَه في شهر رجب سنة ٧٩٣ على مسمع منه، والسبب في ذلك، كما قال العلاَّمة حسين بن عبد الرحمٰن الأهدَل في كتابه «تحفة الزمن»: «عداوة المذهب والغَيْرة من الفقيه لقبوله وشهرته عند الناس، وإنكاره لمذهب الزيدية».

لذلك فلا غرابةَ إن هادن الإمامُ محمد بنُ إبراهيم الوزيرُ خُصومَه أحياناً، ومال في الظاهر إلى بعض أقوال علماءِ الزَّيْديَّة لكي يُخلّى وسبيله، ويُترك وشأنه. لكنه مع ذلك لم يفتر عن مجاهرته بالعملِ بالكتاب والسُّنَّة، والسَّعي لإثبات ما يَعتقدُه حقاً بترجيحِ ما يؤكد حجّته ويُقوي برهانَه في القضايا المتنازع عليها. وإذا كانت شائكة لا تحتمل مناقشتها والخوضَ فيها لإظهار القول الفصل، فإنه يكتفي بالأكثار من الاستشهاد بالآيات والأحاديث الصحيحة، ويترك للقارىء أن يُمَيِّزَ بفطرتِه السَّليمة، وفهمِه السَّدِيْد ما هو حقٌّ وصواب وما هو بعيدٌ عنهما كما فعل حينما جنح إلى أن السنة النبويّة هي الثّقَل للقرآن الكريم، وذلك في مقدمة كتابه «الرَّوض الباسم»، فإنه استشهد بالآية الكريمة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ وبالحديث: «إني أُوتِيتُ القرآن ومثلَه معه»، وعقَّب على ذلك بقوله: «وهو ـ أي السنة ـ العلم الذي إذا تجاثت الخصومُ للرُّكب، وتفاوتت العلومُ في الرُّتب، وأضْمَت مرنانُ نوافله كلَّ مناضل». وقال أيضاً: «فإنَّه عِلْمُ الصَّدرِ الأول، والذي عليه بعد القرآن المعوَّل (تأمل) وهو لعلوم الإسلام أصلٌ وأساس، وهو المفسر للقرآن (تأمل) بشهادة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، وهو الذي قال الله فيه تصريحاً: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ويقول تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. أي إلى حكم الله في كتابه المبين وإلى حكم رسوله في سنته، لأن رسوله كما وصفه الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فالسنةُ هي التي فصّلت مجمل أحكام القرآن، فبيّنت الحلالَ والحرامَ، وسائر الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات.

أما حديثُ: «إني قد تركتُ فيكم ما إن أَخذْتم به لن تَضلوا كتابَ الله وعِترتي أهلَ بيتي»، فقد أوْضَحَتْ معناه روايةُ مسلم عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً بماءٍ يُدْعى خُمًّا بين

مكةَ والمدينة، فقال: «أما بعدُ، أيها الناس، إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسولُ ربي فأجيبُ ربّي، وإني تاركٌ فيكم ثَقَلين: أولهما كتابُ الله فيه الهدى والنورُ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتابِ الله، ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهلُ بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، ثلاثاً»، وكذا رواية البخاري عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: قال: «ارقبوا محمّداً في أهل بيته».

ولا يعني ورود هذا الحديث بلفظ: «عترتي»[1] أن العِتْرة كِفةٌ معادلةٌ لكِفَّة القرآن في التشريع كما يزعم بعضهم، وإنما المرادُ من اقترانها بالقرآن التمسك بسنّته كما هو الحال في حديث: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي»، إذ المراد بسنة الخلفاء الراشدين سنة الرسول نفسه ومنهجه.

وإذا كان المراد بالعترة هم أهل بيته فهم نساؤه، بصريح الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ لموقع هذه الآية مما قبلها وما بعدها من الآيات كما سيأتي بيان ذلك قريباً. على أن حديث الكساء قد وسَّع مدلول الآية ليشمل علياً وأهلَ بيته: زوجَه فاطمة والحسنين رضي الله عنهم، وهم من هم في الاقتداء برسول الله ﷺ، فقد كانوا عاملين بالكتاب والسنة، فلم يفترقوا عنهما في حياة رسول الله ﷺ، ولا بعد مماته في كل أمر من أمور الدين، ولم يؤثر عنهم أنهم حادوا عنهما في شيء. وإن كان المراد بالعترة: من تناسل من أولاد الحسنين، فإنهم قد اختلفوا اختلافاً بيِّناً في الأصول والفروع، وصاروا شيعاً وأحزاباً، حتى مَنْ هم على مذهب واحد، وفي ديار واحدة، فما بالك بمن هم مختلفون مذهباً وعقيدة وداراً؟! وإذا كان الأمر كذلك، فكيف سيتمُّ تعيين قرناء القرآن منهم؟

---

(١) العترةُ لغة ـ كما في القاموس ـ نسلُ الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر.

وما هي القاعدة التي ينبني عليها هذا الوصف حتى ينطبق على فئة معينة ليكون كلامُها موازياً وعِدلاً وثقلاً للقرآن الكريم؟ على حدّ رواية «وعترتي أهل بيتي»، وهم قد تفرَّقوا في ديار الإسلام قاطبةً، واعتنقوا المذاهب الإسلامية المنتشرة فيها، فمنهم من هو على مذهب الإمام الشافعي، ومنهم من هو على مذهب الإمام أبي حنيفة، ومنهم من هو على مذهب الإمام مالك، ومنهم من هو على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل. كما أن منهم من اعتنق مذهب الإمامية (الاثنا عشرية)، ومنهم من اعتنق المذهب الإسماعيلي بفروعه، بل إن المؤسسين لهذين المذهبين يدَّعون أنهم ينتسبون إلى الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. ومع هذا فإن كل فريق منهما يدّعي أنه وحده على الحق، وأن غيره على الباطل، مع أنَّ علماء الزيدية، وهم من الشِّيعة المعتدلين يُنكِرون على أصحاب هذين المذهبين أموراً كثيرة، وتاريخ اليمن حافل بما كان يجري للإسماعيلية من حروب دامية من أئمة الزيدية وأتباعهم، حتى قلّ عددهُم، وتفرَّق شملُهم بعد أن تحوَّل كثيرٌ منهم إلى المذهب الزيدي.

وإذا كان المراد بالعترة ذرية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، المُقِيمين في اليمن، فإن فيهم من هو على مذهب الإمام الشافعي، وفيهم من هو على مذهب الإمام أبي حنيفة، وأصحاب كلا المذهبين لا يَرَوْنَ رأي الزيدية في بعض شعائرهم وعقائدهم بل يُنكرونها عليهم، كما أن الزيدية يُنكرونَ على أصحاب هذين المذهبين أموراً لا مجال لذكرها هنا!!

لهذا وذاك، فإن بعض علماء الزيدية الهادَويين يحكُمون على غير أهل مذهبهم بالتكفير والتفسيق لمخالفتهم لمذهبهم، كما فَعَل الإمام المتوكّل إسماعيل بن القاسم المتوفى سنة ١٠٨٧هـ؛ فقد كان يُكفِّر بالإلزام، كما روى المؤرخ السيد عبد الله بن علي الوزير في كتابه

«طبق الحلوى»؛ حيث قال: «إن مذهب أهل العدل (الزيدية) يقضي أن المجبرة والمشبهة كفار، وإن الكفار إذا استولَوْا على الأرض ملكوها، ولو كانت من أرض المسلمين وأهل العدل، وأنه يَدخُل في حكمهم مَنْ والاهم واعتزى إليهم، ولو كان معتَقَدُه يخالف معتقدهم، ويقول أيضاً: «وإذا استفتح ـ أي الإمام ـ البلاد التي تحت أيديهم، فله أن يَضَع عليها ما شاء، سواء أكان أهلُها ممن هو باقٍ على ذلك المذهب أم لا»، وقال أيضاً: «وكان ـ أي الإمام المتوكل ـ يميل في الأصول إلى التكفير بالإلزام، ورتَّب على ذلك أحكاماً في أهل اليمن الأسفل[1]، وجعل أرض اليمن خراجيةً يجوز للإمام أن يضرب عليها ما يشاء، لكون أهله أقاموا تحت أوامر الأتراك»، ثم قال عبد الله بن علي الوزير: «فكانت هذه المقالةُ الظالمةُ أساسَ كل ظلم، وكيف يجوز تكفير أناس ما رضوا بعقيدة؟ ولا نسلم فسادَ عقيدة الأتراك بل هم مسلمون، فهم من هم من خيار عباد الله طاعاتٍ وصدقاتٍ ومحاسنَ، وفيهم المتوسطون، وفيهم أهل الفساد كغيرهم من أهل الأرض».

وقد ألّف الإمام المتوكّل المذكور رسالةً بَيَّن فيها مذهبه وحكمه في غير أهل مذهبه، سماها «إرشاد السامع إلى جواز أخذ مال الشوافع»، ورسالة أخرى سماها «الجواب المؤيَّد بالبرهان الصريح على عدم الفَرْق بين كفر التأويل والتصريح، وحكم البغاة على المذهب الصحيح».

وقد اعتَرَض على الإمام المتوكل في معتقده هذا ابنُ أخيه العلامة المجتهد يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم، حتى إنه لم يُبَايِعْه

(١) حدود اليمن الأسفل من جبل سمارة حتى عدن وسكانه كلهم على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله، كما أن تهامة والنواحي الجبلية المطلة عليها وكذلك المشرق كله على مذهب الإمام الشافعي.

إماماً، وكذلك اعترض عليه العلامة أحمد بن علي الشامي، والعلاّمة عبد القادر المُحَيْرِسي، وهما من علماء الزيدية، كما بينا ذلك في تراجمهم في كتابنا (هجر العلم ومعاقله في اليمن).

وكان هذا المُعْتَقَد الظالمُ الجائرُ هو معتقد بعض أئمة الزيدية الغلاة في من لم يكن على عقيدتهم ومذهبهم كما روى العلاّمة المؤرخ أحمد بن عبد الله الوزير في كتابه «تاريخ آل الوزير» المعروف بالفضائل استطراداً في ذكر أعمال الإمام عبد الله بن حمزة المتوفى سنة ٦١٤، وما ارتكبه في حق المطرفية، وهي فرقة من فرق الزيدية، فقد أبادَها على بَكْرة أبيها، وهَدَم مساجدها، وحكم بأنها ضرارية، وأتلف جميعَ مؤلفات علمائها، بما لفظه: «وكذا اسْتَبى صنوه[1] - أي صنو عبد الله بن حمزة - يحيى بن حمزة من صنعاء ست مئة سبية[2]، واقتسموهن في قاع طَيْسَان[3]، وقال الإمام المنصور (عبد الله بن حمزة) في ذلك: «أمّا السَّبْيُ فنحن الآمرون به»، لأنه اعتبر صنعاء دارَ كفرٍ حينما كانت تُحكم من قبل الدَّولة الأيوبية التي كان على رأسها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، الذي حرَّر الشام وبيت المقدس من أيدي الصليبيين.

وإذا كان المراد بالعترة مَن هم على المذهب الزيدي، وأنَّهم هم الفرقة الناجية - كما يقولون - فإنه يُوجَدُ أيضاً خلافٌ كبير بين أئمته وعلمائه، فقد ذكر الإمام محمد بن إبراهيم الوزير في «العواصم والقواصم» ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٩، ما لفظه: «والزيدية فرقة واحدة من الشيعة قد تفرقوا إلى مخترعة، ومطرفية، وجارودية، وصالحية، وحسينية، وفي الفروع مؤيدية، وهادوية، وناصرية، وقاسمية، وأهل الكوفة منهم على مذهب أحمد بن عيسى، والحسن بن يحيى،

---

(١) الصنو: الأخ.

(٢) السبية: الأسيرة التي تؤخذ عنوة.

(٣) قاع طَيْسان: بجوار قرية بيت نُعم وسوق الربوع من هَمْدان صنعاء.

ومحمد بن منصور كما ذكره صاحب «الجامع الكافي»، ووقع بينهم تفسيق وتأثيم على الاختلاف في الفروع كما حكاه السيد أبو العباس في تلفيقه رحمه الله (دع عنك الأصول)، واشتد اختلافهم من بعد الإمام المنصور بالله عليه السلام في الأئمة، فافترقوا على الإمام الداعي، وعلى الإمام المهدي أحمد بن الحسين افتراقاً قبيحاً كفّر بعضهم بعضاً.

وهذا هو ما بيّنه العلاّمة المجتهد صالح بن مهدي المَقْبلي المتوفى بمكة مجاوراً سنة ١١٠٨ في كتابه «العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ»، بقوله: «ومما جرى لي مع رجل (هو يحيى بن إبراهيم جحّاف) منهم - أي من علماء الزيدية - رأيته متقشّفاً، وتخيّلْته للصّواب متشوقاً، ورأيته بمحل من الإمام (المتوكل إسماعيل ابن الإمام القاسم)، وعيْناً في ذلك المقام الذي هو مجمع الأعلام، فسمعته يقول، وقد أملى بعض كتب الفقه (وهو التقرير للأمير الحسين) على إمام العصر أيّده الله تعالىٰ، وقد قال صاحبُ ذلك الكتاب: «أجمع على هذا أهلُ البيت»[1]، فقال ذلك الرجل: وقد أجمعوا على تخطئة من خالفَ إجماعهم، والذي يُحفظ عنهم أنهم أجمعوا على عدم تخطئة من خالفهم، ذَكَر هذا غير واحد منهم كالمنصور بالله والمهدي والإمام يحيى وغيرهم، فقال: «الحق ما قلنا، ولا عبرة بمن خالفه»، فقلت: قد أفدتم فها هنا سؤال آخر، وهو أن

(١) قال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير في كتابه «العواصم والقواصم» ٣/ ٤٢٠: «وما أحسن كلام المنصور بالله عليه السلام في الرد على من ادّعى إجماع أهل البيت عليهم السلام، حيث قال في «المجموع المنصوري»: وإن شئت أن ترجع إلى أهل البيت، فتشتتهم كان في أيام عبد الله بن الحسن، ولحاق إدريس بن عبد الله بالمغرب، وبعضهم بالمشرق وتشتتوا تحت كل كوكب، وفيهم العلم ووراثة النبوة، وليس لكل منهم تصنيف مع علمه. . . إلى آخر ما ذكره». وانظر أيضاً المصدر نفسه ٤/ ١٩٠ و١٩٦.

هذه العِتْرة الطيّبة قد تفرَّقَت في البلاد، وملأتْ الأغوارَ والأنجاد، ومَنْ كان في إقليم من الأقاليم، وقُطر من الأقطار، إنما هو على مذهب أهل تلك الجهة في غالب الأمر، لم يَتوصَّلوا كلُّهم بمذهب واحد في مهمات الأصول كيف نوادر الفروع، هؤلاء الأئمة المعروف في اليمن مقالاتهُم جماعة من أهل اليمن، وعدد قليل من أهل الجبل[1] ممن شاعت أقواله، وسارت الركبان بمذاهبه كالناصر (الأطروش)، وبقي الكثير منهم، وبقي أهل الكوفة وما والاها، ذكر بعض العلماء (هو الإمام محمد بن إبراهيم الوزير) من دعاتهم جماعةً كثيرةً زيدية، وقال: أهل اليمن لا يعرفونهم، ولا يعرفون مقالاتهم، وكذلك الإدريسيون في المغرب فيهم كثرة، وظاهرهم على مذهب مالك، ثم مِن هذه الذريَّة شافعية في الفروع، حنفية أو أشعرية في الأصول، متظهرون بذلك كالمحقق السيد الشريف الجرجاني وغيره، وفي المحدثين الكثير الطيب علماء مجتهدون في الزيدية من أهل البيت، لا يزيدون عليهم وصفاً ولا عدداً، وكلٌّ يدّعي أنه المقتفي لآثار القدماء من أهل البيت علي والحسنين ونحوهم رضي الله عنهم، إذ إصابة عليّ ومَن وافقه كلمةُ إجماع بين الأئمّة سوى الخوارج، وكلٌّ ينتهي إليه، ومَن عدا الشيعة لا ترى بينه وبين أكابر الصحابة اختلافاً ضائراً، إنما هم كالنجوم من تَلْقَ منهم فقد لاقيتَ سيدَهم، بل إذا نظرت في أنساب الفاطميين وجدت الزيديَّة نزراً يسيراً»[2].

ثم قال العلامة المقبلي: «وهذا السؤال بعينه واردٌ على من زَعَم أن العترة والكتاب لن يفترقا عملاً بحديث الترمذي، وأن معناه أن العترة دليلُ الحق، فإن ذهبوا إلى شيءٍ فهو حق، وذهابهم إليه يغنيان

(١) هم أهل الجبل والديلم، والجبل والديلم: سلسلةُ جبالٍ بين بحر قزوين شمالاً، وبين مدينة قزوين جنوباً.
(٢) العلم الشامخ ١٣ ـ ١٥ ـ ١٨.

عن الدليل، فيقال: ذريّة النبيّ ﷺ بل قرابته افترقوا في الأمة على حدّ افتراقها، ففي كلٍّ من طوائف السنّة والشيعة الكثير الطيب، وفي أقوالهم التّناقض الذي لا يخفى، لا سيما كبار المسائل التي هي ضلال قطعاً، كما يأتي في هذه الأبحاث، ولا تناقض في الكتاب العزيز، ويَلزم ذهاب خصوصية أهل البيت إذا لم ينفردوا بمقالة تَجمَعُهم، وتخصيص فرقة إن كان بدليل خارج كأن يقول: دلّ الاستقراء على صحة مذهب هذه الفرقة، قلنا: والمعتمد تلك الأدلّة. وقد زَعَمْنا أن دليل الحق هو نفس ذهاب أهل البيت إلى قولٍ، فحينئذ تضيع فائدة الحديث وتذهب الخصوصيَّة».

كذلك، فإنَّ الإمام محمَّد بن إبراهيم الوزير كان يعتقدُ كما يعتقد جمهورُ المسلمين بأنَّ الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ خاصة بنساء النبيّ ﷺ لموقع الآية ممَّا قبلها وما بعدها من الآيات التي تبدأ بمخاطبتهن بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠ ـ ٣٤]، كما صرّح بذلك في قوله: «وأوضح من هذا تخصيصهم للآل بآية التطهير دون نساء النبيّ ﷺ مع ظهورها فيهن، والاتفاق على أن سياقها وما قبلها وما بعدها فيهن (العواصم والقواصم ١٩/٩، ٥٨). ولكنه كان يستعمل لفظ ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ لما هو أعمّ من نساء النبي حتى يخفف من عداء خصومه له.

ومما يدل على أن لفظ الأهل في آية التطهير يعود إلى نساء النبي ﷺ، وأن الضمير إذا عاد إلى هذا اللفظ عاد بلفظ الجماعة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ فالأهل هنا امرأة الرجل بالإجماع، ولا يوجد ما يصرفها عن امرأة الرجل، وقد عاد إليه الضمير بلفظ الجماعة، وهو: (حاضري)،

فأهله اسمُ (يكن)، و(حاضري): خبره، وقد حذفت النون من (حاضري) للإضافة إلى (المسجد الحرام).

وقد ذهب إلى ذلك العلامة المجتهد صالحُ بن مهديٍّ المقبليُّ في كتابه «العلم الشَّامخ» ص ١٥، حيث قال: فالأهل يشمل لغة: الأزواج رضي الله عنهنَّ، والخطاب في القرآن لهنَّ، فهن من أفراد أهل البيت في عصرهن».

وقال شيخ الإسلام الشوكاني في تفسيره «الفتح القدير» ٤/٢٦٩ عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ «أي: أوصاكُنَّ مِن التقوى، وأن لا تخْضَعن بالقول، ومن قول المعروف، والسُّكون في البيوت، وعدم التَّبرُّج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والطَّاعة، ليذهب عنكم الرجس أهل البيت».

وأورد الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣/٤٨٣ ما لفظه: «وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نصٌّ في دخول أزواج النبيِّ ﷺ في أهل البيت هاهنا، لأنهنَّ سببُ نزول هذه الآية، وسببُ النزول داخلٌ فيه قولاً واحداً، إمَّا وحده على قولٍ، أو مع غيره في الصَّحيح، وروى ابن جرير عن عكرمة أنَّه كان يُنادي في السُّوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نزلت في نساء النَّبيِّ ﷺ خاصَّة، وهكذا روى ابنُ أبي حاتم، قال: حدَّثنا عليُّ بن حربِ الموصليّ، حدَّثنا زيدُ بنُ الحباب، حدَّثنا حسينُ بن واقد. عن يزيد النحويِّ، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، قال: نزلت في نساء النبيّ ﷺ خاصةً. وقال عكرمة: مَنْ شاء باهَلْتُه أنَّها نزلت في شأن نساء النبيِّ ﷺ.

وقال القرطبيُّ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ١٤/١٨٣:

والَّذي يظهر من الآية أنَّها عامَّةٌ في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنَّما قال: «ويُطهِّركم»؛ لأن رسول الله ﷺ وعلياً وحسناً وحسيناً كان فيهم، وإذا اجتمعَ المذكَّر والمؤنَّث، غُلب المذكَّرُ، فاقتضت الآيةُ أنَّ الزوجات من أهلِ البيتِ، لأن الآية فيهنَّ والمخاطبةُ لهنَّ، يدلُّ عليه سياق الكلام، والله أعلم. ثمَّ أردفَ، فقال: والصَّحيح أنَّ قوله: «واذْكُرْنَ» مَنسُوق على ما قبله، وقال: «عَنكُم» لقوله: «أَهْلَ»، فالأهلُ مذكَّر، فسماهن ـ وإن كنَّ إناثاً ـ باسم التَّذكير، فلذلك صار «عَنْكُمْ» ولا اعتبار بقول الكلبيِّ (الذي قال: هم عليٌّ وفاطمة والحسنُ والحسين خاصة) وأشباهه، فإنَّه تُوجد له أشياء في هذا التفسير ما لو كان في زمن السَّلف الصَّالح لمنعوه من ذلك وحَجَرُوا عليه. فالآيات كلُّها من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ منسُوق بعضُها على بعضٍ، فكيف صار في الوسط كلاماً مُنفصلاً لغيرهن؟ وإنَّما هذا شيءٌ جرى في الأخبار أنَّ النبيَّ عليه السَّلام لمَّا نزلت عليه هذه الآية، دعا عليًّا وفاطمة والحسَنَ والحسين، فعمد النَّبيُّ ﷺ إلى كساءٍ فلفها عليهم، ثم ألوى بيده إلى السَّماء، فقال: «اللَّهمَّ هؤلاء أهل بيتي، اللَّهمَّ أذهب عنهمُ الرِّجس وطهِّرهُم تطهيراً»، فهذه دعوة من النَّبيِّ ﷺ لهم بعد نزول الآية، أحبَّ أن يدخلَهم في الآية التي خوطب بها الأزواج، فذهب الكلبيُّ ومن وافقه، فصيّرها لهم خاصَّة، وهي دعوةٌ لهم خارجة من التَّنزيل.

وجاء في (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ١٣/ ٧٣ للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ في تفسير آية التطهير: «والذي يظهر لي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، وبنته وبنوها وزوجها، وهذه الآية تقضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن. أمّا أن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي فدنا رسول الله ﷺ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فدخل معهم تحت كساءٍ خيبري، وقال: هؤلاء أهل

بيتي وقرأ الآية، وقال: اللّهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، قالت أم سلمة: وأنا يا رسول الله؟ فقال: أنت من أزواج النبيّ وأنت إلى خير، وقال الثعلبي: هم بنو هاشم فهذا على أن البيت يراد به بيت النسب، فيكون العباس وأعمامه ـ أي أعمام النبيّ ﷺ ـ وبنو أعمامه منهم، وروي نحوه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

أمّا المفسر الكبير العلاّمة المجتهد السَّيِّد[1] محمد رشيد رضا، صاحب «تفسير المنار» الشهير، فإنَّه يقولُ في تفسيره للآية المذكورة: «فقد ورد تعقيباً لآياتٍ في خطاب نساءِ النَّبيِّ ﷺ يأمُرهنَّ الله تعالىٰ وينهاهنَّ، ويعلِّمُهنَّ بأنَّ جزاءَهُنَّ على الخير والشرِّ مضاعَفٌ، لأنَّهنَّ لسن كسائرِ النِّساء، وهذا ظاهرٌ معقولُ المعنى، فإنَّ بيت المُرشد الكامل قدوةٌ في الهُدى والرَّشاد، ولو ظهرَ العمل السيِّءُ مِنْ ذلك البيتِ الَّذي جعله الله مَنبعاً للهُدى، ومشرقاً للوحي، لكان أعظم مُنفِّرٍ عن الاهتداء والإيمان، فقوله تعالىٰ بعد تلك الأحكام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، تعليلٌ وبيانٌ للحكمة في كون نساءِ النَّبيِّ ﷺ لسنَ كسائر النساءِ كونهنّ جديراتٍ بمضاعفة العذاب على المعصية، والثواب على الطَّاعة لمكان القدوة، وإنَّما قال (عنكم)، لأنَّ النبيَّ ﷺ في البيت، وهو المقصودُ بالتَّطهير أوَّلاً وبالذات، وأنَّ كمالَ نسائه يُنسبُ إلى هدايته ﷺ[2].

قلت: والتَّذكير في (عنكم) و (يطهركم) يعودُ إلى لفظ الأهل، لأنَّه مذَكَّرٌ، وله شواهدُ كثيرة، في القرآن الكريم، مثل قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ

(١) ينتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه.

(٢) مجلة المنار ص ٢٢٥ ـ ٢٣٥ الجزء السادس من المجلد الثاني الصادر يوم ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٣هـ الموافق ٢١/ ٥/ ١٩٠٥م.

ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ ﴾ [القصص: ٧٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣] إلى غير ذلك من الآيات، فالضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿عليكم أهل البيت﴾ و ﴿سآتيكم﴾ أو ﴿آتيكم﴾ و ﴿امكثوا﴾ و ﴿مثلهم معهم﴾ يعود إلى لفظ الأهل، لأنه مذكَّرٌ كما سبق بيانه. ويعضد ذلك ما ورد من الآيات الدالّة على أن المراد بأهله نساؤه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ الآية [آل عمران: ١٢١]، أي خرجت من النزل الذي تسكن فيه مع أهلك (نسائك)، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله تعالىٰ في سورة يوسف حاكياً ما قالته امرأة العزيز لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾، وفي الحديث عنه ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها.

كذلك فقد بيَّن الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ما المرادُ بالمودَّة في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ [الشورى: ٢٣]، فقال وهو يحاججُ شيخَه عليّ بن محمَّدِ بن أبي القاسم الذي تصدَّى لمحاربته: «وقد نَسَبَ إلى كثيرٍ من الأئمة عليهم السَّلام مخالفة جماهيرهم فيما انفردوا به، ولم يَستنبط لهم مِن ذلك كراهة مَنْ خالفوه، بل ذَكَر السَّيِّدُ (عليّ بن محمد بن أبي القاسم) في «تجريده للكشاف» المزيد فيه النكت اللطاف أقوالاً مخالفةً لإجماع العترة أو لجماهيرهم، مقرّراً لها، غير منكرٍ على قائلها، مع أنَّها متضمِّنةٌ للقدح، وفي أدلَّة أهل البيت، وذلك أنَّه قال في تفسير قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾: اختُلف في معنى الآية على أقوال:

أحدها: أنَّ المراد: أنَّ تودُّوني لقرابتي منكم، قاله ابنُ عباس وعكرمةُ ومجاهدٌ وغيرهم، قال ابن عباس: لم يكن بطنٌ من بطونِ

قريشٍ إلاَّ ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة[1].

الثاني: إلا أن تودُّوا قرابتي، قاله عليّ بن الحسين، وسعيد بنُ جبيرٍ والسّدِّيُّ وغيرهم.

ثم بالمراد بقرابته ﷺ قولان: أحدهما: أنَّهم عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ، وقد رُوِيَ مرفوعاً[2] إلى النَّبيِّ ﷺ، وثانيهما: أنَّهم الَّذين تَحرُمُ عليهمُ الصَّدقة.

---

(١) العواصم والقواصم ١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨، وقال الأستاذ شعيب محقق هذا الكتاب في تعليقه عليه: «أخرجه البخاريُّ برقم (٤٨١٨)، وتمامه: فقال: إلاَّ أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وهو الصحيح في تفسير الآية كما سيأتي مبيناً في التعليق الآتي.

(٢) قال محقق «العواصم والقواصم» ومخرج أحاديثه: ضعيفٌ جداً، أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٥٩) عن طريق حسين الأشقر عن قيس بن الربيع، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿قُل لا أسألكم عليه أجراً إلاَّ المودة في القربى﴾ قالوا: يا رسول الله، من قرابتُك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتُهم؟ قال: عليّ وفاطمة وابناهما رضي الله عنهم، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٧، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. وحسين الأشقر، قال البخاري: فيه نظر، وقال مرة: عنده مناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ليس بقوي، وقال الجوزجاني: غال شتام للخيرة، وقال أبو معمر الهذلي: كذاب، وقال الدارقطني والنسائي: ليس بالقوي، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث «الكشاف»: ضعيفٌ ساقط، وقيسُ بن الربيع لمَّا كَبِر تغيَّر، فأدخل عليه ابنُه ما ليس من حديثه، فحدَّث به، وأيضاً فإنَّ سورة الشورى مكية، وفاطمة رضي الله عنها لم يكن لها إذ ذاك أولاد بالكلية، فإنَّها لم تتزوج بأمير المؤمنين عليّ إلا بعد بدر من السنة الثانية للهجرة. وقد عارض هذا الحديث ما هو أولى منه، ففي البخاري (٤٨١٨) من رواية طاووس عن ابن عباس أنَّه سئل عن هذه الآية، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: عجلت، إنَّ النبيّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا بيني وبينكم من القرابة.

وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير» ٧/ ١٨٩: والحقُّ تفسير الآية بما فسّرها به الإمام حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس كما رواه عنه البخاري، ولا =

والثالث: أنَّ المعنى: إلا أنّ تتوددوا إلى الله تعالىٰ فيما يقرّبكم إليّ من العمل الصَّالح، قاله الحسنُ وقتادةُ.

الرابع: إلاَّ أن تودوا قرابتكم، وتصلوا أرحامكم، حكاه الماوردي.

ثم حكى - أي علي بن محمد بن أبي القاسم - عن ابن عباس: أنَّ الآية منسوخةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧]، وعن الثعلبي والواحدي: أنَّ القول بالنَّسخ مبنيٌّ على أنَّ الاستثناء متّصلٌ وهو منقطع[1]. انتهى ما حكاه وفي آخره اختصار.

= تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنَّهم من ذرية طاهرةٍ من أشرف بيت وجد على ظهر الأرض فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متَّبعين للسنَّة النبوية الصحيحة الواضحة الجليَّة، كما كان عليهم سلفهم كالعباس وبنيه، وعلي، وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين». اهـ.

فمعنى الآية واضح أي إلا أن تودّوني لقرابتي منكم فلا تؤذونني حتى أتمكن من تبليغ الرسالة السماوية، وهذا حينما كان في مكة وهو محتاج إلى العون والنصير، لكنه لما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة أمره الله بأن يبلغ رسالته وأن الله عاصمه من الناس.

(١) قال محقق «العواصم والقواصم»: قال ابن الجوزي في «زاد المسير» ٧/ ٢٨٤: وفي الاستثناء ها هنا قولان:

أحدهما: أنه من الجنس، فعلى هذا يكون سائلاً أجراً، وقد أشار ابن عباس في رواية الضحاك إلى هذا المعنى، ثم قال: نُسخت هذه بقوله: ﴿قُل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم﴾، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل.

والثاني: أنه استثناءٌ من غير الأول، لأن الأنبياء لا يسألون على تبليغهم أجراً، وإنَّما المعنى: لكني أذكركم المودة والقربى، وقد روى هذا المعنى جماعةٌ عن ابن عباس، منهم: العوفي، وهذا اختيارُ المحقّقين، وهو الصحيح، فلا يتوجه النسخ أصلاً.

وقال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش إلا أن تودوني في قرابتي منكم وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم.

ومع ما بذله الإمام محمد بن إبراهيم الوزير من محاولاتٍ كثيرة مختلفة للتخفيف من حدّة عداء خصومه المناوئين له، والتقليل من حملاتهم العنيفة عليه، فكانَ يَلين لهم في الخطاب، ويتودّدُ إليهم بأدب وتواضعٍ ولا سيَّما لشيخِه علي بن محمد بن أبي القاسمِ الذي كان يلتزمُ معه الأدب والتوقير، ولا يخاطبه، ولا يشيرُ إليه إلاَّ بلفظ «السيد جمال الدين أيّده الله» في غالب أحواله كما هو ظاهرٌ في كتابه «العواصم والقواصم»، مع أن شيخه المذكور قد تصَدَّى له بالهجوم الشديد والتجريح المرير بعد أن ناصَبه العداء السافر، كما أفاضَ الإمام ابنُ الوزير في الثناء على علماء أهل البيت بغلُوٍّ منه غير معهود حتى بَلَغَ به الحال إلى أن خرج عن حدود الاعتدال لهذا الغرض، فقال: «فانظر بعين الإنصاف إلى أئمة العِترة الطاهرة، ونجوم العلوم الزاهرة كيف سَلِمَتْ علومُهم من كل شينٍ، وخلصت من كل عيبٍ، ولم يَشُبْ تصانيفهم شيءٌ من غلوِّ المتكلمين، ولا حَطَّ من قدر شيعتهم المتعبدين شيءٌ من بدع المتصوّفين، ولا ظَهَرَ في أدلّتهم على مذاهبهم شيءٌ من تكلُّف المتعصبين ولا استمالَتْهُم عن المنهاج السوي شُبَهُ المشبهين، تَنَزَّهوا عن غلو الإمامية الجهال، وعماية النواصب الضلال، وهَفَواتِ أهل الحديث والاعتزال، فهُم النمرقة الوسطى، والمحجةُ البيضاء والحجة الغراء وسفينة النجاة والعصمةُ من الأهواء بعد أبيهم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين»[١].

ومع ذلك فإن تلك المحاولات لم تشفع له عند خصومه، ولم تقلّل من شدةِ وطأتهم عليه فيخففوا من عدائِهم وكراهيتهم له، بل ظَلُّوا سادرين في التشنيع به والافتئات عليه.

ولو كان الإمام ابنُ الوزير قد التزم بمبادىء الزيدية الهادوية أو

---

(١) «العواصم والقواصم» ٢/٤٢٨.

ببعضها سلوكاً وعملاً عن عقيدة ـ كما جاء في قصيدته الدالية الآنفة الذكر وفي غيرها فيما كتبه ـ لتبدَّل الحالُ، ولما كان هناك مسوغ إطلاقاً لمحاربته من بعض علماء عصره، ولما كان هناك داعٍ إلى أن يأتي الإمام شرف الدين[1] بعدما يقرُبُ من قرنٍ من الزمان، فيتحامل عليه في «شرح مقدمة كتابه الأثمار» من غير حق، ويقذع في التشهير به ويرميه بأشنع التُّهَم وأقساها وأبعدها عن منطقِ الواقع والعقل والصواب، لا لشيءٍ إلاَّ لأنه نبذَ التقليد الذي كان عليه علماءُ عصره، بعد أن تسنَّم ذروة الاجتهاد، وبيَّن لهم أنَّهم بعيدون عن جادة الصواب، وأن من الخير لهم الرجوع إلى العمل بكتاب الله وما صحَّ من سنَّة رسوله ﷺ، وعدم التعويل على غيرهما، وأرسلَها صيحةً مدوية ما يزال صداها مسموعاً إلى اليوم وإلى يوم الدين إن شاء الله، ممَّا أغضب عليه وأحنق بعضَ علماء الزيدية الهادوية المقلدين في عصره وبعد عصره.

فلقد هبَّ الإمامُ شرفُ الدِّين ناقماً عليه، وتناوله بما استقرَّ في نفسه من كُره له وعداوةٍ شديدة، فأورد نبذةً عنه منقولةً مِن ترجمة له كتبها محمد بن عبد الله بن الهادي إبراهيم الوزير حفيد أخيه الهادي أفاض فيها بالثَّناء عليه وعلى علمه وعلى مؤلفاته، وعقب عليها الإمامُ شرف الدين بقوله: «وأقولُ: هذا المترجَمُ لَهُ مِن أكثرِ النَّاسِ تخليطاً في أمر دينه وعلمه وعمله واعتقاده. وكلُّ العدول العلماء من أهلِ زمانه ومَنْ بعدَه يُجَرِّحَهُ؛ فمنهم من كفَّره (تأمَّل!) والباقون بين مُفَسّقٍ

---

(١) الإمام شرف الدين هو حفيد الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المُرتضى الذي سبق الكلام عن الخلاف بينه وبينَ الإمام محمد بن إبراهيم، وقد كان الإمام شرفُ الدين شديد الحملة على علماء السنة كما هو مذكور في شرح مقدمة كتابه «الأثمار»، فقد شنع على الحسن بن أحمد الهمداني صاحب «الإكليل» وغيره وشنَّع على أبي سعيد نشوان بن سعيد الحِمْيريّ، وعلى الإمام ابن الوزير.

وجارح (تأمّل!). وتوغل هذا ـ أي الإمام ابن الوزير ـ في التَّرخيص في أنواع المعاصي في نكاح وأمزار وفسوق ومذاهب متروكة عند أهل مذهبه، وفي شيء منها عند غيرهم، مثل نكاح الكتابيات[1] وتحليل المُثَلَّث ونحوه للزيدية وغيرهم، وإظهار دخول الفساق الجنّة، وعدم دخولهم النار، حتَّى صنَّف في آخر مدته كتاب «البشرى» في ذلك، وضمّنه من الآيات والأحاديث العددَ الكثير، حتَّى جعل كل آية وعدٍ دليلاً على ذلك، وكذلك الأحاديث، وأنشأ في ذلك أشعاراً لا يتَّسع مثل هذا المؤلَّف لبعضها، منها قوله في أول الأبيات:

برغم أبي الدَّرداء ورغم أبي ذر   تَواتَرَتِ البُشرى وأعلن بالسر

وقال: «وكان له أتباعٌ على مذهبه!! قد أكثروا من نكاح المُتْعَةِ في صنعاء وصعْدة وذمار، حتَّى اجتمع أولادٌ كثيرٌ لا يعرفُ لهم أب (تأمّل)، بل ينسبون إلى أولاد المتعة في صعدة وغيرها من كثرة ما وقع في ذلك التخليط من المفاسد.

وقال أيضاً: وروى لي بعض مشايخي في الفروع، وكان له عمٌّ

---

(١) استند أهل السنة في جواز نكاح الكتابيات إلى الدليل القطعي في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى آخر الآية الخامسة من سورة المائدة، وقد نزلت هذه السورة بعد أن بدّل الكتابيون وحرفوا ما أنزل على موسى وعيسى، كما جاء في القرآن الكريم، وأنكروا نبوّة محمد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]، وكذلك أشرك اليهود كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وأشرك النصارى حينما قالوا كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، فلا معنى للقول بأن الكتابيين اليوم لا يصدق عليهم حكم الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

من أصحاب هذا السيد ـ أي محمد بن إبراهيم الوزير ـ أن السيد تزوج بنكاح المتعة ثلاثَ مئة امرأة، كلٌّ واحدة تسمى بحَمْنَة مِنْ غيرِ مَنْ تسمى بغير هذا الاسم (تأمل)، وكل هذا بحافة القَطِيع بصنعاء من غير سائر صنعاء وسائر البلاد (تأمل لهذا الإفك المفترى).

وكان كثير من الفضلاء العلماء يُنكرون عليه، ومنهم مَنْ هجاه وبيَّن أمره بأشعارٍ وغيرها مما نتحاشى عن التصريح به[1]. وممّن أنكر عليه صنوه الأكبر (هو الهادي بن إبراهيم)، وكان مِنَ العلماء، وصنف في الإنكار عليه وعلى أصحابه كتباً[2] عديدة وضمَّنها رسائلَ وقصائدَ وأراجيزَ تتضمن أدلّةً واضحةً قرآنية ونبوية، ومِن نُصوص الأئمة والعلماء وغيرهم.

ثم قال: وعلى الجملة، فلا يشكُّ أحدٌ مِنْ أهل العلم والمعرفة في اشتهاره بما يسقط عدالته، ويخرجه عن حدِّ قبول الرِّواية والشَّهادة. ومع هذا فإنَّ أهل زمانه مِنْ علماء تهامة والحواز مثل يحيى العامري[3] وغيره عظّموه واحترموه، وجعلوه الحجَّة من أهل البيت، والمراد بمثل «وعترتي أهل بيتي» وذكروه في مصنّفاتٍ

---

(١) وهل أبقى الإمام شرف الدين ـ سامحه الله ـ شيئاً لم يَبُح به بعد أن اتهمه ـ ظلماً وجوراً ـ بأنه تزوج ثلاث مئة امرأة من حي القطيع أحد أحياء مدينة صنعاء؛ اسم كل واحدة منهن حمنة. وعلى هذا فكم يا ترى تزوج من هذا الحي ممَّن يحملن أسماء أخرى؟ وكم عدد النساء اللاتي تزوج بهن من سائر أحياء صنعاء الأخرى؟ ثم كم عدد من تزوج من النساء من غير صنعاء، فرحم الله من قال:

لــهــوى الــنُــفــوس ســريــرة لا تُــعــلــم

(٢) لا صحة لهذا، ولكنه كان يدافع عنه، كما تقدم بيان ذلك، وكما سيأتي بيان ذلك في قصيدته اللاّمية التي قرظ بها (العواصم والقواصم).

(٣) هو يحيى بن أبي بكر العامري: عالم حافظ محدث، مولده سنة ٨١٦ وقيل سنة ٨١٧، وتوفي بحرض سنة ٨٩٣ وقيل ٨٩٤.

لهم، واحتجّوا بأقواله، فالذي يرى اعتمادهم على مثله يطيب قلبه، ويعرف جهلَ المخالفين لأكابر أهلِ البيت وأفاضلهم وبناؤهم لمذاهبهم على شفا جرفٍ هارٍ بمثل اعتمادهم على مثل هذا الذي لا يعتمد عليه أحدٌ من أهل المذاهب كلّها ممن عرف حاله، وتساهلهم في توثيقه، والاحتجاج به مع ظهور مثل حاله، ولم يكن لهم داعٍ إلى ذلك إلاَّ خروجه عن مذهب أهله إلى مذهب أهل الضَّلال (تأمّل واعجب لهذا الكلام، فإنه يقصد بأهل الضَّلال من يعملُ بالكتابِ والسنة، وهذا هو سرُّ النَّقمة عليه)، التي تيقن حاله فيها، وعلم أنَّه خارقٌ بما جمعه من الاعتقادات المختلفة لكل الأقوال الإسلامية حتَّى قال لي بعض مشايخي في أصول الدين: إنه حين طالع كتاباً له يسمى «إيثار الحق على الخلق» لو ادَّعى مدَّعٍ أنَّه حسَّنَ فيهِ كلَّ مقالةٍ كُفريَّة لصدق.

وكان صاحب الترجمة هذه مِنْ أعظم النَّاس تخليطاً، حتَّى كان في زمانه ثلاثةُ دعاة: أحدهم والدنا الإمام المهدي (أحمد بن يحيى بن المرتضى)، والثاني: علي بن المؤيد، دعا بعد أسر المهدي، ودعواه لليأس من خروجه، وبعد خروج والدنا اتفق رأيهم (هكذا)، وصوَّب كلُّ واحد منهما صاحبه، وأخذ الإمام علي من الإمام المهدي ولايةً باطنةً حسنةً، تغيّرت قلوب كثيرٍ من أتباعه بإظهارها، وأوصى حين حَضرَتْهُ الوفاة بتسليم ما بيده من الحصون وغيرها إلى الإمام المهدي، وسلّمها إليه وصيُّه ولدُه الحسن أبو الإمام عز الدين، وترك الإمام المهدي لأولاد الإمام علي زكاة بلاد خولان، وأكثر المنقولات من بيوت الأموال لعمارة مشهدٍ للإمام علي وإقامة هجرته والتدريس فيها، وغير ذلك.

والداعي الثالث علي بن الإمام صلاح الدين، وهو من قرابة الإمام المهدي وابن ابن خاله، وكان لا معرفة له في العلم فأكلفه

علماء[1] السوء من أصحاب حي والده على الدَّعوة خشيةَ تغيير دنياهم، وغرُّوه عَن نفسه ودينه. وكان هذا السيِّد المترجمُ له قد بايع[2] وتابع المهديّ عليه السلام، وله في الإمام مدائحُ، ثمَّ إنَّه بعد ذلك نكث وبايع علي بن صلاح، وأخلد إلى الدُّنيا وشهواتها، وتنوّع في اتباع الرُّخَص الخالعة من الدين بتعدُّداتها، وكان تارةً يتمخلعُ تمَخْلُع الفُسَّاق (تأمل!) وتارة يعتكفُ ويتصوَّفُ تصوُّف العشَّاق، ولقد وقف في بعض خانكات المساجد مسجد وَهْب بن مُنَبِّه ـ الخالية ـ خارج صنعاء أشهراً، وكان قريباً من المقابر حتَّى خرج من عكفته إلى خلاعته، وقال من شعر العامة:

يازائرةْ للمقابر خلّ الغلط في الزِّيارة   زوري قتيل المحبة فهو لك أربح تجارة

ولقيه بعضُ الصَّالحين، فحثا في وجهه التراب، وقال: ارتدَّيتَ يا محمَّد، ورجع إلى هجو الإمام المهدي لما ردّ عليه بكتابه «القمر النوَّار في الرد على المرخصين في الملاهي والأمزار»، وأنكر عليهم

---

(١) كان على رأسهم القاضي عبد الله بن حسن الدوّاري وغيره من علماء صعدة، ولم ينسَ الإمام شرف الدين موقف الدوّاري المؤيّد للإمام علي بن صلاح الدين ضد جدّه الإمام المهدي، فقد أمر حينما ذهب إلى صعدة بأن يُقصَّر قبر الدوّاري إلى قدر شبر بعد أن كان مرتفعاً، لا اتباعاً للسنة وامتثالاً لها، إذ لو كان الأمر كذلك لأمر بتقصير القبور المجاورة له، ومنها قبر الإمام المهدي علي بن محمد جد الإمام علي بن صلاح، ولكن لما في نفسه عليه لأنه كان السبب في حجب الإمامة عن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، كما ذكر العلامة يحيى بن الحسين في طبقاته لوحة ٧، راوي هذا الخبر، وذلك بقوله: «وكأنه أراد الوضع من شأنه لما كان منه من بيعة الإمام علي بن صلاح، وخذله للإمام المهدي».

(٢) لم يبايع هو وأخوه الهادي بن إبراهيم الوزير، وإنما بايعا الإمام علي بن صلاح الدين، ولما عوتب الهادي لمبايعته علي بن صلاح وهو غير عالم ولم يبايع المهدي وهو عالم، فأجابه: بأنه قد أحرز من العلم كتاب الله وتفسيره، ونظر في الحديث النبوي ومعرفة رجاله وما قيل فيهم من تعديل وجرح. (غاية الأماني ٥٦٠) في أخبار سنة ٨٠٥.

تلك المنكرات والفواحش الكبار، فهجاه بأشعارٍ كثيرةٍ ورسائل، حتّى كفّره الإمام المهدي ببعض ألفاظها، وأجاب هجوه الفضلاء، فمنها ما قاله الفقيه أحمد[1] بن قاسم الشامي:

رضيتَ نفسك كلباً للسَّلاطين ... لما تجروك يا شرَّ الشَّياطين

لتلهث «القمر النوار» مَنْ ملئت ... أنواره الأُفق في الدُّنيا وفي الدِّين

وقد شهدتَ له بالفضل قبلُ: فما ... ينفيه من بعد إلاَّ كلُّ ملعون

إلى آخر القصيدة التي قالها في ذلك المعنى.

وله فيه أيضاً:

محمَّدٌ حاق بك الافتضاح ... بجَحْدِ ظهور ضياء الصَّباح

أتُنكر فضلَ الذي فضلُه ... سرَى في الأقاليم مُسرى بَراح

فإن كنتَ من هاشمٍ في الذُّرَى ... فقد يَنْبتُ الشَّوكُ فوقَ الأقاح

وإن كنتَ من آل بيتِ الرَّسول ... فلا بُدَّ للبيتِ من مُسْتَراح

ثم ختم الإمامُ شرفُ الدين كلامَه عن الإمام محمد بن إبراهيم الوزير بقوله: «ولم أذكر هذا إلا للتعريفِ بأن هذه التراجم والتعديلاتِ والجروح لا يعتدُّ بها (تأمل) ولا يغتر بمن قال بها، وقد بنى عليها كثيرٌ من العلماء، ولا بدّ أن تأتي زيادةُ بيان لما يعرفك أنه لا ثقةَ لهذه في جرحٍ ولا تعديل لما في كثيرٍ منها من التناقض»[2].

---

(١) لقد ختم الله لهذا الشاعر بالحسنى، فتاب عمّا قاله في الإمام ابن الوزير، وقال في قصيدة يمدحه فيها ويفيضُ في الثناء عليه، وعلى علمه مطلعها:

ألمّ بمحمود السجايا محمدٍ ... يُعنك وإن ضاقت عليك المسالك

وقد تقدم ذكرها، نرجو الله له بها التوبة والمغفرة.

(٢) إشارة إلى أنه لا قيمة في نظره إلى علوم السنة ومصطلحات علوم الحديث التي تُعنى بمعرفة الحديث متنهِ وسندِه فيتميّز بها الصحيحُ من الضعيف، والمتصلُ من المقطوع، والمرفوعُ من الموقوف، ومعرفة القواعد والضوابط لمعرفة الجرح والتعديل وغير ذلك من هذا العلم العظيم الذي كفل للسنة نفي الزيفِ عنها.

وبعد، فهذا هو حكمُ الإمام شرفِ الدين على الإمام محمد بن إبراهيم الوزير عرضتُه على القُرّاء ليروا ما عانى هذا الرجلُ العظيم من متاعبَ وما ناله من أَذى وعنتٍ في حياته، ثم بعد مماته لا لذنبٍ جناه ولا لجُرمٍ اقترفه، وإنما لنبذه التقليدَ وتحرّره من قيود المذاهب، وتمسّكه بالعمل بكتاب الله وصحيح سنة رسول الله ﷺ، وحثّه للناس على أن يقتدوا بالسلفِ الصالح في أقوالهم وأعمالهم، فكان أن جلبَ عليه عداوة العلماء المقلدين في عصره وبعد عصره.

ولا جرم أن ما جرى له مما عرضناه في هذا البحث ينفي صحةَ بقائِه على المذهب الزيدي نفياً قاطعاً مهما تشبث المُدَّعُون بما جاء في كلامه مما سبق ذكرُه، إذ لو كان كذلك لما منعه مانعٌ من أن يعلنَ ذلك.

ويكفيه أجراً عند الله اجتهاده وعلى ما ناله في سبيله من نَصَبٍ ومشقة، أنه ما من أحدٍ من علماء المسلمين المتجرّدين من هوى التعصب المذهبي وقف على شيءٍ من كتبه وقرأها إلا مَلك عليه حبَّه وإعجابَه، ودعا له وترحّم عليه، وطلب له من الله المغفرة والرضوان لذهابه مع الحق أينما ذهب، ولسعة علمه، وغزارة معارفه العديدة التي برز فيها، وملك ناصيتها، واستوثق من قبض يده على زمامها، حتى صار المُجَلّي على غيره من علماء الاجتهاد الذين تقاصرت خطاهم دونه، فلم يبلغوا ما انتهى إليه علمُه من المعارف الإسلامية، فقد وهبه الله قلباً حافظاً ولساناً لافظاً، فكان يحفظُ ما يقرأه عن ظهر قلب، وتستوعب ذاكرتُه العجيبةُ ما يطلع عليه مما يقع في يده من المراجع ـ وما أكثرها ـ فكان إذا أراد أن يكتب في أي موضوع، ارتسمت فكرتُه في ذهنه، وانقادت له عناصرُه وأقسامُه وتفرّعاته، وما يترتب عليها من احتمالات وإشكالات واعتراضات وشواهدها والأدلّة التي يحتاج إليها لإبراز حُجَجِه وإيضاح براهينِه، فيكتب ذلك وكأنه ينقلُ من كتاب

مسطور من دون أن يحتاجَ إلى الرجوع إلى المصادر التي يذكرها ويستشهد بما نقل منها كما هو الحال في كتابه (العواصم والقواصم)، فإنه يوجد أحياناً اختلافٌ بَيِّنٌ في اللفظ فيما نقل من ذاكرته عن النص المكتوب في مصادره التي اطّلع عليها.

فرحمه الله ما كان أوسعَ، علمِه وأقوى حُجَجِهِ، وأَسرَعه إلى معرفة الحق والإفصاح عنه بأسلوبه السهل الممتنع، وما ذلك إلا بتوفيق من الله الذي هيّأ له من أمره رشداً ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

«ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم»، «وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»، وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

التعريف بالعواصم والقواصم

هذا هو الكتاب العظيم الذي قامت دار البشير في عمّان بنشر بعض أجزائه، ثم نشرته مؤسسة الرسالة كاملًا، وقام بتحقيقه وتخريج نصوصه والتعليق عليه الأخ الأستاذ العلاّمة شعيب الأرنؤوط، وقد اعتمدتُ في التعريف به، وبما اشتمل عليه من أبحاث على ما كتبه محمد بن عبد الله بن الهادي بن إبراهيم الوزير حفيد أخيه الهادي بن إبراهيم الوزير في ترجمته له، وقد أوجز ما اشتمل عليه من أبحاث فيما يلي:

«ذكر في المجلد الأول الخطبة، وفيها الإشارة إلى سنة الله في إقامة الحجج، ومقام الرفق، ومقام الشدة في ذلك، وفيها شيء من مناقب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم، ثم مناقب أهل بيته، ثم مناقب أصحابه رضي الله عنهم، ثم مناقب أمّته، ثم ترجيح عدم التكفير لأهل التأويل منهم، وذكر كثير مما جاء في ذلك كتاباً وسنةً.

ثم الإشارة إلى أقربِ الطُّرِق إلى معرفة الله تعالىٰ، والاكتفاء بالجُمَل وكيفية التعلّم لذلك من كتاب الله تعالىٰ، وذكر أقرب الأشياء إلى قطع الوسواس والشكوك، ثم في ذكر النهي عن التكفير[1]، والاختلاف والفرق بين المِراء المنهي عنه، والجدال بالتي هي أحسن، والحثّ على الصلح بين المسلمين والتأليف حسب الإمكان، ثم ذكر الموجب لتأليف هذا الكتاب والعذر في التصدّي، ثم في الشروع في الجواب.

(١) في نسخة: التفكّر.

والذي اشتمل عليه من المسائل العلمية هذا المجلد مسألتان:

المسألة الأولى: الكلامُ في صعوبة الاجتهاد في العلم أو سهولته وذكر شرائط الاجتهاد عند الفريقين المُعَسِّرين والمُيَسِّرين، والرد على من زعم أنه قد صار متعذّراً على الإطلاق، وفي ذلك عشرون تنبيهاً تشتمل على بيان غلط من أوهم تعذره، أو شكّك في ذلك، ودعا الناس إلى الإعراض عن طلبه.

ثم الكلام فيما يكفي المجتهدين من معرفة الأخبار النبوية، ومعرفة طرق التصحيح والجرح والتعديل... وما يؤدي إليه القول بتعذّر الاجتهاد، وخلوّ دار الإسلام ممن يعرف معنى كلام الله تعالىٰ، وكلام رسوله صلّى الله عليه وآله وسلم، وصحيح حديثه من عموم الضّلالات وأنواع الجهالات، وتعذّر معرفة جواز التقليد حينئذ، وارتفاع التكليف بتفاصيل الشريعة المطهّرة المحفوظة صانها الله عن ذلك. وفي آخر ذلك تمام الكلام في الجرح والتعديل وفي أئمة الحديث الذي أخذ ذلك عنهم، واتّصلت الروايةُ بهم، ثم الكلام في معرفة الصحابة رضي الله عنهم، وحكم المجهول منهم، ومعرفة ما يكون المسلم به صحابياً.

ثم القول في معرفة ما يحتاج إليه المجتهدُ من التفسير، ثم معرفة الناسخ والمنسوخ، وحصر المنسوخات وذكرها بأعيانها مع تمييز ما أجمع على نسخه مما اختلف فيه بأوجز عبارة، ثم ذكر اجتهاد الصحابة، وعدد مَنْ عُرِفَ بالاجتهاد منهم وفيه الذَّبّ عن أبي هريرة (رضي الله عنه) وعن أمثاله من السلف، وبيان صدقهم والردّ على من اتّهمهم بتعمّد الكذب. ثم ذكر الحسن البصري، وأبي حنيفة رضي الله عنهما وبعض مناقبهما، واجتهادهما، والرد على من قدح فيه، ثم الرد على من قال: إنه لا مجتهد بعدَ الإمام الشافعي رضي الله عنه، وما يُؤدي ذلك إليه من تجهيل كبار الأئمة وأحبار الأمة في مقدار ستمائة سنة، وذكر خلائق من المجتهدين في هذه القرون وتسمية كثير منهم.

المسألة الثانية: القول في قبول أهل التأويل في الرواية من أنواع المبتدعة إذا عُرِفَ صدقُهم وحفظهم، وذكر الاختلاف في ذلك، وتقصّي الأدلّة فيه، وفي ذلك فصلان:

الفصل الأول: في ذكر من قال: إن قبولهم باطل قطعاً لا ظنّاً، وذكر أدلّته وإبطالها، وذكر ما يلزمه من دعوى القطع في ذلك من اللوازم الصعبة، والإشكالات الجمَّة التي بلغت مئتي إشكال أو أكثر، وفي آخر ذلك ذكر ما يخُصُّ المرجئة ثم الجبرية من ذلك وما يؤدي إليه القولُ بأن المسألة قطعية.

الفصل الثاني: في ذكر الأدلّة على قبول المتأولين، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قبولُ فاسق التأويل، وفيها ذكر الإجماع على قبولهم من اثني عشر طريقاً، فمن الأئمة المنصور بالله عبد الله بن حمزة، والإمام المؤيّد بالله أحمد بن الحسين، وأخوه يحيى بن الحسين الحسنيين الهارونيين، والإمام المؤيَّد بالله يحيى بن حمزة، والأمير الحسين بن محمد بن أحمد بن يحيى الهادي إلى الحق، والقاضي زيد بن محمد، والفقيه العلامة عبد الله بن زيد صاحب «الإرشاد» والحاكم المعتزلي صاحب «العيون» و«السفينة» و«التفسير»، والشيخ أحمد بن محمد الرصاص، وجده الشيخ العلامة المتكلم الحسن بن محمد الرصاص، والشيخ الإمام أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب.

ثم ألحق ـ رحمه الله ـ تعالىٰ ما يدلّ على صحة رواية هؤلاء للإجماع، وما اعترضت به هذه الرواية والجواب عنه، ثم شهرة خلاف المتأخرين في ذلك على تقدير التسليم أن إجماع القدماء لم يصح، وذكر نصوص أهل البيت خاصة على قبول فسَّاق التأويل، ونقل ذلك من تصانيفهم المشهورة الموجودة المتداولة، ثم ذكر الحجج العقلية في ذلك ومن ذكرها منهم وتأييدها بالأدلّة السمعية إلى أن تمت اثنتان وثلاثون حجة.

ثم ذكر خمسة عشر مرجحاً لقبولهم على ردهم وما فيه من الاحتياط والورع.

ثم ذكر المسألة الثانية من هذا الفصل الثاني، وهي قبولُ كفار التأويل عند مَنْ يقول به، ورواية الإجماع فيه من خمس طرق عن المنصور بالله، والمؤيَّد بالله يحيى بن حمزة، والفقيه عبد الله بن زيد، والقاضي زيد بن محمد، والإحالة بأكثر الأدلّة إلى الأدلّة على المسألة الأولى، وبيان أن هذه المسألة محل نظر واجتهاد.

ثم ذكر ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فائدة في حكم حديث فسَّاق أهل التأويل إذا عارض رواية أهل العدل وماهية شرط التعارض.

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ خصيصتين: أولهما في فضل أهل البيت، والثانية في تقديم أهلِ كلٍّ فن في فنهم ومعرفة حقٍّ تجويدهم فيه، وعنايتهم فيه، ثم بيان التنزّه عن تقديم فساق التأويل على أئمة الإسلام وأن ذلك لم يكن منه ـ رحمه الله ـ قطّ، وأن الخصم قد وقع فيه من حيث لم يشعر.

ثم بيان القول في العموم والخصوص إذا تعارضا، وطرف من الكلام في مسألة الجهر بالبسملة والإخفات، .ثم بيان أن البخاري ومسلماً وأهل السنن الأربع لم يتعرَّضوا لحصر الحديث الصحيح، ولا ادَّعوا ذلك، بل صرَّحوا بنقيضه، ثم بيان حكم ما ادُّعي من الإجماع الظني على صحته من حديث البخاري ومسلم، وما خرج عن دعوى الإجماع الظني من حديثهما، ومن لم يقل بهذا الإجماع من جماهير العلماء والمحدثين، ثم ذكر ترجيح الذي ليس بمجتهد لبعض مذاهب العلماء، لموافقتهما للأخبار الصحاح، وما يرد على ذلك، والرد على من منعه.

ثم ذكر التزام مذهب معين في التقليد، وهل يجب ذلك، وما المختار فيه؟

ثم الكلام في حديث المحاربين لأمير المؤمنين علي عليه السلام، وإفراد الكلام عليهم من دون أهل التأويل.

ثم ذكر - رحمه الله - أربعة عشر وَهْماً من سبعة وعشرين وهماً:
الأول منها: قولُ المحدثين بعصمة الصحابة وأن كبائرهم صغائر.

الثاني: أنهم يُجيزون الكبائر على الأنبياء صلوات الله عليهم.

الثالث: أن مروان بن الحكم ليس هو طريدَ رسول الله ﷺ، بل طريدُه الحكم.

الرابع: في حكم مروان.

الخامس: أن الزنى صح من المغيرة بن شعبة.

السادس: في تعيين جَرْحه بذلك أو جرْح الشهود عليه به.

السَّابع: أن الشهود الثلاثة إن لم يكونوا قاذفين، وجب جرحُ المغيرة بالزنى الذي أخبروا به.

الثامن: في مناقضته في الثناء على أبي بكر، وذم من قعد عن نصرة علي عليه السلام، لأنه كان من القاعدين عن نصرته.

ثم إنه ذكر - رحمه الله - كلاماً في الوليد بن عقبة، وفيه الرد على من زعم أنه من رواة الكتب الصحاح.

ثم ذكر كلاماً في عبد الله بن عَمْرو بن العاص وأبي موسى، وجوَّد الكلام على الأحاديث التي فيها ذكر القوم الذين يُؤتى بهم يومَ القيامة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيذهب بهم إلى النار فيقول رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم: «أصحابي»، فيقال له: إنك لا تدري ما أحدثوه بعدك.

فهذا ما تضمنه المجلد الأول من العواصم.

وأما المجلد الثاني، ففيه تنزيه إمام السنة أبي عبد الله أحمد بن

حنبل عن القول بالتشبيه والتجسيم، وتنزيه أئمة الحديث مطلقاً، وذكر بعض من روى عنه أئمة أهل البيت، وأئمة الحديث ممن يختلف في قبوله وفي توثيقه، وبيان نزاهة الإمام أحمد عن التشبيه، وبيان مذهبه ومذهب أهل الأثر في ذلك في فصل طويل أودعه رحمه الله كتاب الوظائف في ذلك، وزاد عليه زيادة في آخره مفيدة.

ثم إنه رحمه الله ألحقه بما يُناسبه من مقالات أهل الجُمَل من أهل البيت، ثم بيان كيفية الاحتجاج على التوحيد والنبوات وسائر ما يحتاج إليه من أصول الدين، وأخذ ذلك من كتاب الله عز وجل، وكلام علماء الإسلام من جميع الفرق، وكيفية التعلم لذلك من كتاب الله تعالى وأخذه منه.

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ مباحث في دليل الأكوان، وأورد عليهم فيه معارضات ومناقضات لم يسبق إلى مثلها، وذكر أبياتاً له صادية[1] وشرح شيئاً منها.

ثم الرد على من نسب الإمام مالكاً ـ رحمه الله ـ وأمثالَه من أئمة الفقه والحديث إلى البَلَه والجمود، لعدم ممارستهم علم الكلام والمعقولات، وجَوَّد الرد على من زعم ذلك في نحو أربعة عشر وجهاً، وبين ما يرجع إليه التارك لعلم الكلام في مقامين: أحدُهما: مقام النظر في معرفة الله لتحصل قوة اليقين بذلك، وثانيهما: مقام الرد على الفلاسفة والمبتدعة عند الحاجة إلى ذلك.

ثم ذكر رحمه الله تعالى مذهب الفرقة الثانية من أهل الأثر، وهم الجامعون بين الأثر والنظر وعلوم المعقولات والمنقولات، وأورد مختصراً لابن تَيمية في ذلك، وذكر أدلة الفِرَق في التكفير وعدمه لأهل التأويل، وضمنه أيضاً كلام الإمام المنصور بالله في تعذر معرفة إجماع

---

(١) في نسخة: هائية.

أهل البيت بعد تفرقهم في البلاد الشاسعة، وذكر جماعة لا يعرفون، ولا تُعرف مذاهبهم من خلفاء ودعاة وغيرهم ممن في بلاد الغرب الأقصى وبلاد اليمامة وغيرهما.

ثم أورد بعد هذا ترجمة الإمام أحمد بن حنبل مستوفاة من كتاب «النبلاء» للذَّهبي الشافعي.

ثم الكلام على مسألة القرآن وتجويدها، والدلالة على عدم تكفير المختلفين فيها، وذكر قول من قال من قدماء أهل البيت: إن القرآن ليس بمخلوق، كقول جمهور أهل الحديث، وما ذكره محمد بن منصور الكوفي الزيدي في ذلك، وفي الجُمَل وترك التكفير، ونقله لذلك من جملة أهل البيت وقدماء المعتزلة.

ثم تكلَّم ـ رحمه الله ـ في مسألة الرؤية وفي عرض ذلك الذب عن الإمام الشافعي، والرد على من قدح في اعتقاده، وضمن مسألة الرؤية قواعد كباراً كلامية، وبسط القول في معنى الجسم والكلام على تضعيف أدلة المتكلمين في تماثل الأجسام، وتضعيف العقول بأن المعدوم شيء وما يلزم من قال بذلك.

ثم تكلم ـ رحمه الله ـ بعد هذه المقدمات في فصلين في الرؤية أحدهما في إمكانها وإحالتها، وثانيهما فيما ورد من السَمع في أنها تقع في الآخرة عند أهل السنة، وذكر أدلة الفريقين مستوفاة بألفاظهم، ثم الذب عن البخاري محمد بن إسماعيل صاحب الصحيح، والرد على من ألزمه الجبر ببعض ما جاء في كتابه الصحيح.

ثم ذكر ستة أوهام تتعلق بمن اعتقد الإيمانَ، ولم يَنطِق به، وهل التلفُّظ بالشهادتين بعدَ الاعتقاد شرط في صحة الإِسلام أو واجب مستقل متأخر، مثل الصوم والصلاة والحج؟ ثم الرد على من زعم أن المخالفين كفار تصريح، ثم بيان القدر الضروري في وجوب شكر المنعم، وطرف من الكلام في التحسين والتقبيح بالعقل، وذكر حجة

من لا يقول به على أن الله تعالى واجب الصدق محال عليه أن يتصف بصفة النقص عند جميع أهل الإِسلام.

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ في المجلد الثالث من هذا الكتاب الرد على من زعم أن أئمة السنة الأثبات ينكرون أن لنا أفعالاً وتصرفات، واستخرج من ذلك أنهم كفارُ تصريح لإنكارهم في زعمهم العلوم الضروريات، وأن هذا مجرد دعوى عليهم من غير بينة، وأنهم مجمعون على إثبات الاختيار ونفي الإِجبار، وأن بيان ذلك يظهر من طريقين: أحدهما: النقل لذلك عن المعتزلة والشيعة، فإنه يوجد في كلامهم عند حاجتهم إليه في إلزام الأشعرية لبعض المناقضات، والطريق الثانية: النقل عن أئمة أهل السنة ومتكلميهم، وذكر نصوصهم المتواترة الصريحة من كتبهم الشهيرة. وذكر الفرق بين المحبة والإرادة والرضا والمشيئة، وأن الفرق بينهما في اللغة واضح، فالمحبة والرضا نقيض الكراهة، والإرادة والمشيئة معناهما واحد، وهو ما يقع الفعل به على وجه دون وجه على تفصيل قد ذكره واستدل عليه، وأطال الحجة فيه وأدلة الفريقين من المعتزلة والأشعرية مستوفاة العقلية والسمعية.

ثم أورد تأويل المعتزلة لآيات المشيئة، وهو قولهم: إن الله لو شاء أن يكره العصاة على الطاعة لفعل، لأنه لو كان يعلم لهم لطفاً إذا فعله لهم أطاعوه، لوجب عليه فعل ذلك، لأنه تعالى لا يخل بالواجب، وقد ألزمهم علماءُ الإسلام تعجيز الرب سبحانه عن هداية عاصٍ واحد على وجه الاختيار وهم يلتزمونه في المعنى، لأنه صريح مذهبهم إلا أنهم يقولون: إنه لا يستلزم اسم العجز، لأن اللطف بهم محال، والمحال ليس بشيء، والقادر لا يوصف بالقدرة على لا شيء.

وأجاب ـ رضي الله عنه ـ عن هذا السؤال بأن الإِحالة ممنوعة، ومع تقدير تسليمها، فيلزمهم قبحُ التكليف لأن إزاحة أعذار المكلفين

عندهم واجبة، ولذلك أوجبوا اللطف على الله تعالى، وخالفهم في ذلك قدماء أهل البيت عليهم السلام، كما نقله في أوائل هذا الجزء عنهم، وعن غيرهم، وجلة من المتأخرين منهم السيد العلامة الإمام أبو عبد الله مصنف «الجامع الكافي» والإمام يحيى بن حمزة وغيرهم.

ثم ذكر الكلام على القضاء والقدر، وما ورد من النهي في الخوض فيه، وبيان مرتبة ذلك من الصحة، وبيان معناه، وأن الوارد في ذلك عموم وخصوص، فالعموم مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وغير هذه الآية، والخصوص عشرة أحاديث عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وثوبان، وأبي الدرداء، وعن ثوبان أيضاً، وعن ابن مسعود، وأنس، وأبي هريرة، وعن ابن عباس أيضاً، وأبي رجاء العطاردي[1]، وليس فيها شيء متفق على صحته، ولا خرَّج البخاري ومسلم منها شيئاً، لكن خرَّج أحمد بن حنبل منها حديثاً من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهي طريق مختلف فيها اختلافاً كبيراً، وهي تصلح مع الشواهد، وخرَّج الترمذي منها حديثاً عن أبي هريرة، وقال: غريب. لكن خرّج البزار له إسنادين آخرين. قال الهيثمي: رجال أحدهما رجال الصحيح غيرَ رجل واحد، وخرج الطبراني في المعجمين «الأوسط» و«الكبير» حَديث ابن عباس في ذلك، وقال الحاكم: صحيح على شرطيهما، وهذا عارض، والعود أحمد.

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ ما قاله العلماء وأهل اللغة في تفسير القضاء والقدر على اختلاف مذاهبهم وأدلتهم وأفهامهم، وغلَّط من زعم أن معنى القدر والقضاء معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه، وليس كذلك، وذكر أن كثيراً من أهل السنة فسروا القضاء والقدر بعلم الغيب السابق، منهم القاضي عياض في شرحه لمسلم، والنووي في شرحه له، وابن بطال في «شرح البخاري» وغيرهم.

---

(١) في نسخة: العطاري، وهو تحريف.

ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ أن الأحاديثَ التي وردت في وجوب الإِيمان به أكثر من سبعين حديثاً، وأنها قد كثرت كثرة توجبُ التواتر، وذكر أيضاً بعدها نحو مائة وخمسين حديثاً، في صحة ذلك فيما ليس فيه ذكرُ وجوب الإِيمان به، وكل رواتها رجال الصحيح، وتكلم على حديث «القدرية مجوس هذه الأمة»، وأنه ضعيف عند المؤيد بالله من أئمة الزيديَّة وعند المحدثين. قال رحمه الله: وأما قول الحاكم أبي عبد الله: إنه صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم عن ابن عمر فَشرَةٌ منه بالتصحيح، فإنه لم يصح ذلك، وتصحيح كل ضعيف على شروط معدومة غير ممكن، فإن فسر القدر بالعلم، فالمذموم مَنْ نفاه، وإن فسر بالجبر والإِكراه، فالمذموم من أثبته، ثم ذكر فائدة العمل مع القدر جواباً على من قدح في أحاديث الأقدار من المبتدعة، وأن الفائدة في العمل مع القدر مثل الفائدة في العمل مع سبق العلم، إذ كل منهما غيرُ مزيل للقدرة، ولا مؤثر فيها، ولو كان شيء من ذلك يؤثر فيها، لما تعلق جميع ذلك بأفعال الله، وجوَّد الكلام في ذلك، وشنَّع الكلام على من وعر إليه المسالك.

ثم ذكر أفعال العباد، وأنه لا خلافَ بين المسلمين أن للعباد أفعالاً مضافة إليهم يسمون بها مطيعين وعصاة، ويثابون على حسنها، ويستحقون العقاب على قُبحها، وأن الله تعالى قد أقام الحجة عليهم، وأن له سبحانه الحجة البالغة لا عليه، وأن عقابَه لمن عاقبه منهم عدل منه لا جَور فيه ولا ظلم، وأن ذلك معلوم ضرورة من الدين، وأن الإجماع منعقد على أن أفعال العباد اختيارية لا اضطرارية، وأن الفرق بين حركة المختار وحركة المفلوج والمسحوب ضروري إلا من لا يُعتد به في الإجماع من سقط المتاع[1] الذين لم يرجعوا إلى تحقيق في النظر، ولا إلى حسن في الاتباع، ولا لهم في ذلك سلف ماض

(١) كجهم بن صفوان وأتباعه مِنْ نُفاة الاختيار.

ولا خلف باق، وهم الجبرية الخالصة الذين لا يثبتون للعبد قدرة أصلاً.

ثم ذكر أن فِرَق المعتزلة عشرون وفرق الأشعرية أربع فرق، وأن الفرقة الثالثة من الأشعرية أهل الكسب وهم الجمهورُ منهم. قال رحمه الله: وقد طال اللجاجُ بينهم وبينَ المعتزلة وبعض الأشعرية أيضاً: هل الكسبُ معقول أو غير معقول؟، وذكر أن المشنعين على أهل الكسب من الأشعرية هم إمام الحرمين وأصحابه، ومن المعتزلة أبو هاشم وأصحابه. قال: والإِنصاف يقتضي أنه معقول كما عقله الشيخُ مختار المعتزلي في كتابه «المجتبى» وغيره، فإن معنى قول المشنعين: إنه غيرُ معقول أنه مستحيل تصورُهُ في الذهن وتفهمه، فإذا استحال ذلك استحالَ الحُكْم عليه بالبُطلان أو الصحة. قال: وهذا غلو في العصبية وليس كذلك، ولا في معناه شيء من الغموض والدقة، فإن الكسب هو فعلُ العبد بعينه الذي هو فعلُ الطاعات والمعاصي والمباحات وسائر التصرفات، وإنما اختاروا تسميةَ فعل العبد بالكسب دونَ الفعل، ومعناهما واحد عندهم، لأن الكسب يختصُّ بفعل العبد دونَ فعل الرب سبحانه ولا يجوزُ أن يُسمَّى الربُّ تعالى كاسباً بخلاف الفعل، فإنه مشترك إلى آخر كلامه. وهو كلامٌ طويل مفيد.

ثم الرد على من نسب إلى أهل السنة أنهم يقولون بتكليف ما لا يُطاق، وأنه لم يذهب إلى هذا المذهب إلا الأقل من أهل الكلام منهم كالرازي والسُّبكي صاحب «جمع الجوامع» دون حملة العلم الشريف النبوي الذي كلامه ـ رحمه الله ـ فيهم وذبُّه عنهم، ثم الرد على من زعم أنهم يخالفون في القدر الضروري من القول بجواز التعذيب بغير ذنب أو الإِيلام لغير حكمة، وأن المحققين منهم لا يجوزون ذلك، وتكلم في ذلك عموماً وخصوصاً، فأما الخصوص، ففي مسألتين:

الأولى: مسألة الأطفال، وأن المعتزلة والشيعة ينسبون إليهم

القول بأن أطفال المشركين في النار بذنوب آبائهم، ويجزمون بذلك هكذا من غير استثناء. قال: وهذا تقصيرٌ كبير في معرفة مذاهبهم، ولهم في ذلك أقوالٌ ذكرها في هذا المجلد.

المسألة الثانية: مما يتوهم مخالفتهم فيه تعذيبُ الميت ببكاء أهله عليه، وأن البخاري في «الصحيح» والخطابي فيما رواه عنه ابن الأثير والنووي تأوّلوا ذلك على أن الميت أوصى بالبكاء عليه كما كانت عادة العرب في ذلك، وذكر تأويلين آخرين حذفتهما اختصاراً.

وأما العموم، فقال رحمه الله: إنها كلمة إجماع من أهل السنة ونقله عن نص الإِمام الشافعي والزنجاني والذهبي.

فهذا ما تضمنه المجلد الثالث من العواصم وهو ميدان الصراع بين الفريقين، فمن أراد معرفة المذهبين معرفة تامةً وهو من أهل النظر والفهم والإِنصاف، فليقف عليه، وإنما طولت في ذلك ـ وإن كان كالخارج عن المقصود ـ رجاء أن يقف على هذه الترجمة من لا يشتفي بها، فيدعوه النشاط والرغبة إلى الوقوف على الكتاب، ولم آت على ترتيب ما اشتمل عليه هذا المجلد ما أتيت على ما اشتمل عليه أخواه فليعرف ذلك الواقف عليه.

وأما المجلدُ الرابع من الكتاب، فجملة ما فيه سبعةُ أوهام بعدَ ثلاثين وهماً فيما قبلَه. ثم بعد السبعة الأوهام القدح على المحدثين برواية ما يُوهم التجسيمَ وما يُوهم الجبر، وما يُوهم الإِرجاء، وما يُوهم نسبة ما لا يجوز إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الجواب عن المحدثين.

فأما الوهم الأول فتقدم، والثاني فيه تحقيق الخلاف في التحسين والتقبيح العقليين، وفيه تفصيل غريب جيد، والوهم الثالث والثلاثون في الكلام على إمامة الجائر مطولاً مجرداً، وفيه فصول:

الفصل الأول في بيان أن الباغي هو الخارج على أئمة العدل

دون الخارج على أئمة الجور في مذهب الفقهاء وسائر علماء الإِسلام، وذكر في الوجه الرابع منه الإِجماع على أن المقاتلين لأمير المؤمنين عليه السلام في صِفِّين والجمل بُغاة عليه ظالمون له، ونصّ أهل الحديث على ذلك وسائر فقهاء الإِسلام، وفيه حكم قاتل علي عليه السلام، ونقل البيهقي أن قتل قاتله كان لكفره عند الشافعية، وما ورد في قاتله من حديث، وكلام أهل السنة وكذا ما ورد في أمثاله، وحكم الفاسق الصدوق، ثم القول في حكم قاتل الحسين، ثم ذكر يزيد الشقي وما ورد في ذمه من الحديث ومن كلام السلف، ودعوى الإِجماع على الإِنكار عليه، والإِغلاظ في ذمه والإِجماع على التصويب لمن حاربه.

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ تعالى فصلاً ثانياً في بيان أنَّ من جوَّز إمامةَ الجائر للضرورة كأكل الميتة، فإنه استثنى من ذ لك من فَحُشَ جورُه كالحجاج بن يوسف، ويزيد بن معاوية؛ ثم عاد إلى ذكر قتل الحسين عليه السلام والإِجماع على تحريمه وتعظيمه، وذكر ما روي عن الغزالي من تحريم لعن كل كافر أو فاسق معين. والجواب على ذلك مستقصى في ذكر كلام الشيعة، وأهل الحديث في ذلك مطولاً مجوداً، وفيه فوائد ونكت وأحاديث في قدر ثلاث كراريس، ثم عاد إلى الموضع الثالث وذكر موضع الخلاف بيننا وبين الفقهاء في شروط الإِمامة وأنهم لم يُخالفونا إلا في النسب، فمذهبهم فيه كمذهب المعتزلة، وإنما خالفوا في مسألة ثانية تتعلق بالنظر في المصالح كما بسطه من موضعه من هذا الجزء الرابع، ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ ثمرة الخلاف وما تنتجه الضرورات، ثم ما ورد من طاعة أولي الأمر وإن جاروا، وأخذ الولاية عن بعضهم، وذكر من عقد له ثم جار، وبين من تغلب من غير عقد وكان جائراً.

ثم ذكر محمد بن شهاب الزهري: وإن بعض الأصحاب من أهل

المذهب قد ادعى أنه ما روى أحد من أهل البيت حديثه وهو غلط، وقد روى عنه الإمام أحمد بن سليمان وغيره من أئمة أهل البيت كما قد ذكروه في موضعه، وعقبه بذكر من خالط الملوك من أهل العلم وما حُكم الموالاة؟ وما هي الموالاة المجمع عليها؟ وما يجوز من المخالطة لهم وما شرط الجواز. وفي ضمن ذلك بيان القدر المحرم من ذكر الدنيا وما يستثنى من ذلك وما يدخل منه في المستحب، ثم القول في إعانة الظلمة والعصاة، وما يسمى إعانة قطعاً أو ظناً وما لا يسمى إعانة. ثم ذكر ترجمة الزهري مستوعبة، وما قدح به عليه، وعدَّد جميعَ ما روي من الحديث وما الذي تفرَّد بروايته، ثم قصة يحيى بن عبد الله بن الحسن عليهم السلام، ومن شَهِدَ عليه بالرق، وأنه ليس فيهم أحد من الثقات، ولا ثبت أنهم شهدوا بذلك مختارين من غير إكراه. ثم ذكر أبا البختري وهب بن وهب، وأنه مجمع على جرحه، ثم إبطال قياس أهل التأويل على الخطابية، ثم الجواب على من قدح على المحدثين برواية ما يُوهِمُ التجسيم والجبر والإرجاء ونسبة ما لا يجوز على الأنبياء، وفيه المنعُ من العلم بكذب ما رواه أهل الصحاح، وبيان المرجحات للمنع من ذلك، ثم بيان شواهد ما فيها من القرآن الكريم، ثم بيان مراتب التأويل وعالم المثال، وتأثير السحر في الرؤية، والجواب الجُملي في ذلك.

ثم بين معارضات بذكر تأويلات بعيدة قبلها الأصحاب، ولم يقطعوا بكذب ما أوّلت به مع ركتها واتحطاطها عن رتبة الصواب عند النظار من العلماء، ثم ذكر الأحاديث التي عيّنها المعترض، وقطع بكذبها، والجواب عنها بورود مثلها أو نحوها في القرآن ومثل تأويلها في تأويل المعتزلة للقرآن، وجملتها ستة أحاديث، الأول: الحديث الذي فيه ذكر مجيء الله تعالىٰ يوم القيامة، والثاني: فيه ذكر الكشف عن الساق ووضع القدم والضحك وتأويل ذلك، الثالث: حديث جرير في الرؤية، الرابع: محاجة آدم موسى، الخامس: قصة موسى مع ملك

الموت، السادس: خروج الموحدين من النار. والجواب عن ذلك مطوّلاً مجرّداً، وذكر فيه فوائد أصولية وقرآنية وحديثية قدر نصف المجلد المذكور، وذكر ـ رحمه الله ـ أن أحاديث الرجاء بلغت قدر أربع مائة حديث وثمانين حديثاً وذكر كثيراً من آيات الوعد والوعيد، وختم ذلك بقدر ثلاثين حديثاً في الوعيد بعد ذكر نيف وعشرين آية من القرآن الكريم. أعاد الله علينا من بركته وفضله العميم ثم إنه رحمه الله تعالىٰ ختم كتابه بهذه الأبيات:

جمعتُ كتابي راجياً لقَبُوله ... مِنَ اللّه فالمرجُوُّ منه قريب
رجوتُ بنصر المصطفى وحديثه ... تُكفِّر لي يومَ الحساب ذنوبُ
ومَن يتشفَّع بالحبيب محمَّدٍ ... إلى اللّهِ في أمر فليسَ يَخيبُ
فيا حافظي علم الحديث ليَ اشفَعُوا ... إلى اللّه فالرَّبُّ الكريمُ يُجيبُ
لعلَّ كتابي أن يكونَ مُذكِّراً ... لكم بالدُّعا للعبد حينَ يغيبُ
ولا سيّما بعد المماتِ عسى به ... يُبلُّ غليلٌ أو يُكفِّر حوب
ولا تُغفلوني إن بليتُ بودِّكم ... وإن بَليت مني العظام تشيب
ومهما رأيتم من كتابي قُصورَه ... فستراً وغفراً فالقُصورُ معيبُ
ولكنَّ عُذري واضحٌ وهو أنَّني ... من الخَلقِ أُخْطِي تارةً وأُصيبُ
وقد ينثني الصّمصَام وهو مُجرَّدٌ ... وينكسر المُرَّان وهو صَليبُ
ولكنَّني أرجو إذا حَلَّ دَارَكُم ... حَلى منه وردٌ بالأُجاج مَشوبُ
يكون أُجاجاً دونَكُم فإذا انتهى ... إليكُم تَلقَّى طيبَكُم فيطيبُ

ولما أكمل الإمام محمد بن إبراهيم الوزير كتابه «العواصم والقواصم»، ختمه بقصيدته اللامية المشهورة والتي ختم بها أيضاً «الروض الباسم»، فنختم بها هذا الكتاب تبركاً:

عليك بأصحابِ الحديثِ الأفَاضل ... تجدْ عندِمم كلَّ الهُدى والفضائل
أَحِنُّ إليهم كلما هبت الصبا ... وأدعو إليهم في الضّحى والأصائل
لَئِن شحَّتِ الأيَّامُ في الجمع بيننا ... سَخَتْ بالقوافي بيننا والرسائل

وقد تلتقي الأرواحُ والبونُ نازحٌ عن الجمعِ للأشباحِ ذاتِ الهياكِلِ
وسمعُ الفتى أوفى وأسرعُ مدركاً وأهدى بسبلِ الحبِّ قبلَ التواصل
فيا لَيْتَ شِعري والأماني ضَلةٌ متى نلتقي بَعْدَ النوى المتطاوِلِ
شيوخ حديثِ المصطفى وعلومه ومتبعوا أقواله في المسائل
همُ القدوةُ الوسطى وهم خيرةُ الورى وهم أنجمٌ للدين غيرِ أوافل
شَفوا غلَلَ الأكبادِ منه فأصبحُوا وقد لَبِسُوا منه نَفيس الغَلائِلِ
هُمُ نَقَّحوا منها الصحيح وبيّنوا معارِفه في الممتعات الحَوافلِ
فهم في مبانيه جِبَالٌ مُنيفَة وهُم في مغانيه شموسُ محافل
يذبُّونَ عن دين النبيِّ محمدٍ بألسنةٍ مِثْلِ السيوفِ الفَوَاصِلِ
دليلُهم قَوْلُ الرسولِ وفِعْلُه وذلك يَوْمَ الفصلِ أقوى الدلائلِ
ومَدْرَسُهُم آيُ الكِتَاب وإنه لأقْمَعُ بُرهانٍ لِكل مُنَاضِلِ
هما حُجَّةُ الإسلام لا ما يَطِيشُ مِن دِماغِ أَلَدٍّ بالخصامِ مُجادِلِ
ولولاهما لم يحيَ بالرسل ميتٌ ولا حاز أهلُ السبق أسنى الوسائل
ولولاهما كان ابنُ سينا منزلاً من العلم في أعلى بروجِ المنازل
وكان ابنُ مسعودٍ وأعلامُ عصره مِن الصحبِ في مهوى مِن الجهلِ نازل
فلا تَقْتَدُوا إلا بهم وتَيَمَّمُوا لهُم منهجاً كالقِدْح لَيْسَ بمائِلِ
ألم تَر أن المصطفَى يَوْمَ جَاءَه الـ ـوليد بقول الأحوذِيِّ المحاوِلِ
تَنكَّب منهاجَ المِرا وَتلا لهُ مِن السجدةِ الآياتِ ذاتَ الفَواصلِ
ولم يجْعَلِ القرآنَ خيرَ مُصَدِّقٍ إذا لم تَقَدَّمْهُ دروسُ الأوائِلِ
كذا فَعَلَ الطَّيَّارُ يَوْمَ خِطابِه لأَضْحَمةٍ بَيْنَ الخصوم المقاول
تَلا لهُمْ آي الكتَابِ فأيْقَنُوا بِهَا بشهاداتِ الدموعِ الهواطِلِ
إلى جُملِ الإسلام صارَ أولوا النُّهى وعادوا إليها بَعْد بُعْدِ المرَاحِلِ
أبو حامدٍ وابنُ الخطيب وهكذا الإمام الجُوينيُّ الذي لم يماثل
كذا ابنُ عقيلٍ وهو أبرعُ عاقل غدا وهو معقولٌ كبعض العقائلِ
فلا تسبحوا في لُجّة البحرِ وابعدُوا عن الخوضِ فيه واكتفوا بالسَّواحِلِ
فإن لم يكن بُدٌّ من الخوضِ فاجعلوا مواردكم مستعذبات المناهلِ

عليكم بقولِ المصطفى فهو عِصمة ... وما عاقلٌ عما يقول بعادلِ
سعدت بذب عن حماه وحبه ... كما شقيت بالصَّدِّ عنه عواذلي

ولما وقف أخوه العلامة الهادي بن إبراهيم الوزير رحمه الله على هذا الكتاب وعلى هذه الأبيات التي ختم بها الكتاب تلقّى ذلك بالقبول، وقال مجيباً لأخيه، فما أحسن ما يقول:

وقفتُ على سِمطِ من الدُّرِّ فاضلٍ ... ترقُّ له شوقاً قلوب الأفاضل
لُمتبعٍ منهاج أحمد جدِّه ... وحامي حِمى أقواله غير ناكل
بديع المعاني في بديع نظامه ... وثيق المعاني في فُنون المسائل
إذا لَزِمَتْ يُمناه نصل يَراعِه ... سجَدن له طَوعاً جباه المناصل
وإن خاضَ في بحرِ الكلام تَزيَّنت ... بجَوهرِه عنق الرِّقاب العَواطِل
تَبارى وقوم في الجدال فأصبحوا ... وإن لجَّجوا من علمهم في جداول
أسمتُ عيونَ الفكر في روض قوله ... فأنشدتُ بيتَ الأبطحي المُواصِل
«أَعُوذُ بربِّ النَّاس من كُلِّ طاعِنٍ ... عَلينَا بشكٍّ أو مُلحٍّ بباطِل»
وثَنَّيت لمّا أن تصفَّحتُ نظمَهُ ... بقولِ فصيحٍ نابهِ القول فاضِلِ
«يرُومُ أُناسٌ يلحقون بشأْوِه ... وأين الثُّريا من يَد المتطاولِ؟»
وثَلَّثت بالبيت الشهير وإنه ... لدُرَّةُ عقد المفردات الكوامل
«وقد زادني حباً لنفسي أَنَّني ... بغيضٌ إلى كُلِّ امرىءٍ غير طائِلِ»
علامَ افتراقُ النَّاسِ في الدِّين إنَّه ... لأمرٌ جليٌّ ظاهرٌ غير خامِلِ
عليكَ بما كان النَّبيُّ محمَّدٌ ... عليهِ، ودعْ ما شئتَ من قولِ قائل
هُو المَسلكُ المرضي والمَذهبُ الذي ... عليه مضى خيرُ القرونِ الأوائل
فدِنْ بالَّذي دانَ النَّبيُّ وصحبُه ... مِن الدِّين، واترُكْ غيرُهُم في بلابل
هُمُ الشَّامة الغَرّا وهُم سادةُ الورى ... وهُم بهجةُ الدُّنيا ونورُ القبائل
وأَرفَعُ ما تدلي به من فضائل ... على الخلق أدنى ما لهُم من فواضل
إذا أَنْت لم تَسلُك مسالكَ رُشدهم ... وتُمسِكُ من أقوالهم بالوَصائل
فقَدْ فاتَك الحَظُّ السَّنيُّ ولم تكُن ... إلى الحَقِّ في نهجِ السبيل بواصِل

رضيتَ بدين المُصطفى ووصيِّه وأصحابه أهلِ النُّهى والفَواضِل
هُمُ قادةُ القاداتِ بعدَ نبيِّهم إلى مشرعِ الحقِّ الرَّوي[1] السَّلاسِل
إلى السُّنَّة البيضاءِ والمِلَّة التي عليها مَثَارُ النَّقعِ من كُلِّ صائِل
ولكنَّها عَزَّتْ بدعوةِ أحمدٍ وقامَتْ ببرهانٍ من الحَقِّ فاضِل
مؤيَّدة في حربها بملائِكٍ مُشيَّدةٍ في أمرها بعواسِل
عِصابةُ جبريل الأمين جُنودُها تحُفُّ بها في خيلها في قَنابِل[2]
أَقامَت مع الرَّايات حتَّى كأَنَّها من الجَيشِ إلاَّ أنها لم تِقاتِل
ولم يعجِزِ الصِّدِّيق بعدَ وفاتِهِ عَنِ الحربِ بل شاد الهُدى بجَحافِلِ
وبايعه الفاروقُ فاشتدَّ رُكنهُ وعَمَّ جميع المسلمين بنائل
وقام بأعباء الخلافةِ بعدَهُم عليٌّ فأمسى الدِّينُ رَاسي الكلاكِل
عليكَ بهدي القَومِ تَنجُ من الرَّدى وتعلُو بهم في الفوزِ أعلى المنازل

وختم الهادي بن إبراهيم الوزير رحمه الله هذه القصيدة بما يلي:
كتب هذه الأسطر الفقيرُ إلى رحمة الله ورضوانه الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى أرضاه الله بعفوه حامداً له، ومصلياً على نبيه ومسلماً ومُرضياً على آله وصحبه «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقنا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غلاً للَّذين آمنوا ربَّنا إنَّك رؤوف رحيم».

---

(١) في نسخة: السوي.

(٢) القنابل جمع القنبل أو القنبلة: طائفة من الناس ومن الخيل.

المراجـع

- البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع. محمد بن علي الشوكاني. مطبوع.
- بهجة الزمن ذيل أنباء الزمن. يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم. مخطوط.
- تاريخ آل الوزير (الفضائل). أحمد بن عبد الله الوزير. مخطوط.
- تاريخ البريهي المطول والمختصر. عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن البريهي. مخطوط.
- ترجمة الإمام محمد بن إبراهيم الوزير لحفيد أخيه محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير.
- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان. محمد بن إبراهيم الوزير. مطبوع.
- الجواب الناطق بالحق اليقين الشافي لصدور المتقين. الهادي بن إبراهيم الوزير. مخطوط.
- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم. محمد بن إبراهيم الوزير. مطبوع.
- شرح رسالة الحور العين. نشوان بن سعيد الحميري. مطبوع.
- شرح مقدمة الأثمار للإمام شرف الدين. مخطوط.
- طبقات الزيدية الصغرى (المستطاب) يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم. مخطوط.
- طبقات الزيدية الصغرى (نسمة الأسحار) إبراهيم بن القاسم بن المؤيد. مخطوط.
- العواصم والقواصم في الذبّ عن سنة أبي القاسم. محمد بن إبراهيم الوزير. مطبوع.
- مطلع البدور ومجمع البحور لأحمد بن صالح بن أبي الرجال. مخطوط.

الفهرس